محمود السعدنى

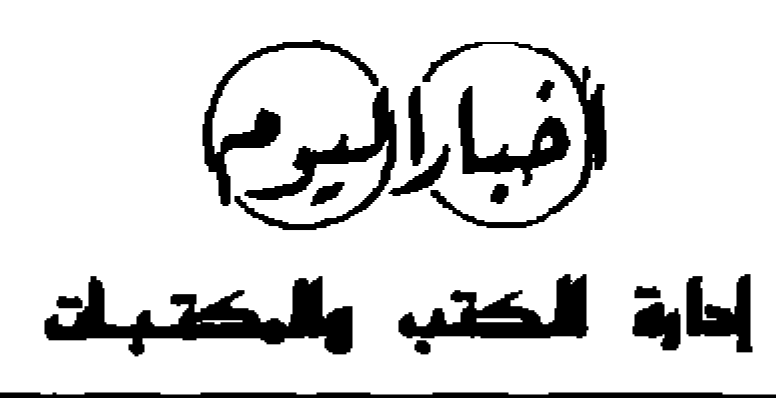
الموكوس فى بلاد الفلوس



محمود السعدنى

المموكوس فى بلاد الفلوس

الطبعة الأولى ١٩٩٠



الغلاف بريشة : **مصطفى حسين**

إهـــــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

الموكوس في بلاد الفلوس

اذا كان العبد لله قد ضاع وصاع وجاع فى بلاد الله ، مشرقها ومغربها ، وبحريها وقبليها ، فأشهد وأبصم وأختم بالعشرة انه مادخل فى مزاج حضرتنا بلد مثل لندن ، ولاعشش فى نافوخ سيادتنا مثل الحياة فى بلاد الانجليز . وحكمة الله ان الانجليز كلاب خارج بلادهم ، لوردات داخل حدودهم . والانجليزى فى الجنوب العربى كان يقتل كل صباح الف عربى ولا يرتعش له رمش ، ولاتطرف له عين ! باكس وفاجر وقلبه من حجر صوان . ولكن الانجليزى فى لندن يبكى دما من اجل كلب جربان وسقعان !

وفى خارج انجلترا تضرب واحد انجليزى يهجم عليك معسكر بحاله . وتنتف شنب واحد مالطى رعية بتاع الانجليز يهجم عليك الاسطول كله ، ويشعل النار فى المدينة ، ويقتل الوف والوف ، ثم يحتفل فى المساء ويشرب واحد كاس ويسكى فى صحة الامبراطورية وجيشها الهمام . وفى داخل بلاد الانجليز ـ واعجباه ـ تضرب الانجليزى الشحط على قفاه ، وتمرمغه فى مياه الامطار ، وألف انجليزى واقف يتفرج ، كل واحد فى حاله ومحتاله ، ولو كان المعتدى هندى من بلاد تركب الافيال !!

وعندنا فى مصر ، لو واحد من حتة تانية ضرب واحد من حتتهم ، ستجد ألف واحد بشومة ، ومئة واحد بساطور ، وميت الف واحد اعزل يخوضون المعركة بالشلاليت والدماغ . وستجد عشرين الف وليه تفقع بالصوت الحيانى دون ان تدرك ايه الحكاية ، اللهم الا ان واحدا من عيال الحتة مضروب . . ياللعار !!

وفى بلاد الانجليز . . الناس تسكر على ودنه ، ولكن ولا واحد يترنح ، ولاواحد يتطوح ولا واحد جدع مضروب ميت سكينة فى دماغه ، وقال ايه . . مبسوط !!

وفى بلاد السكسون الاوتوبيس يحضر للمحطة ، وع المحطة الف راكب مستعجل ، ولكن ولا راكب يقتحم ولا راكب يزاحم ، كله عند الانجليز بالدور ، آخر ظرافة وآخر لطافة ، وسبحان منظم الاكوان .

وفى لندن البنت آخر حلاوة وآخر طلاوة ، ولكن آخر استرجال . تنام فى غابة كلها رجال ، ولكن ولا راجل يستطيع ان يلمس ، ولا واحد يجرؤ على ان يهمس ، مادامت البنت لاتريد الهراش والفراش . . والست فى لندن لابسه ميكروجيب ، وكل شىء ظاهر وباين وعلى عينك يا تاجر . ولكنها تصنع ماتريد وليس ماتجبر عليه . لا الفلوس تغرها ، ولا الكلام المعسول يجرها ، ولا الأمانى والأغانى تدير رأسها على الاطلاق .

والست هناك تتزوج فتخلص وان خانت تعلن ، وقد يرضى الزوج فيسكت ، وقد يغضب فيمضى ، ولكن ليس هناك بيت قائم على الغش ، ولا امرأة تتشدق بالاخلاص وهى دايرة على حل شعرها . ولا راجل يتشدق بالفضيلة ، مع انه نايم على ودانه ، والشغل داير حمرى جمرى من وراه !!

وفى انجلترا العسكرى واقف فى الشارع تقولش الملك ، والعربجى سارح تقولش البرنس ، والجزار ولا الدكتور ، والبنى آدم آخر احترام وآخر عظمة . والاحترام هناك ليس للمهنة ، الميكانيكى له احترام عالم الذرة ، والنجار فى مكانة الموسيقار ، والعسكرى مثل الممثل ، والمخرج مثل سواق التاكس ، كلهم ، لهم المنجهة والابهة ، والاعتبار العظيم !

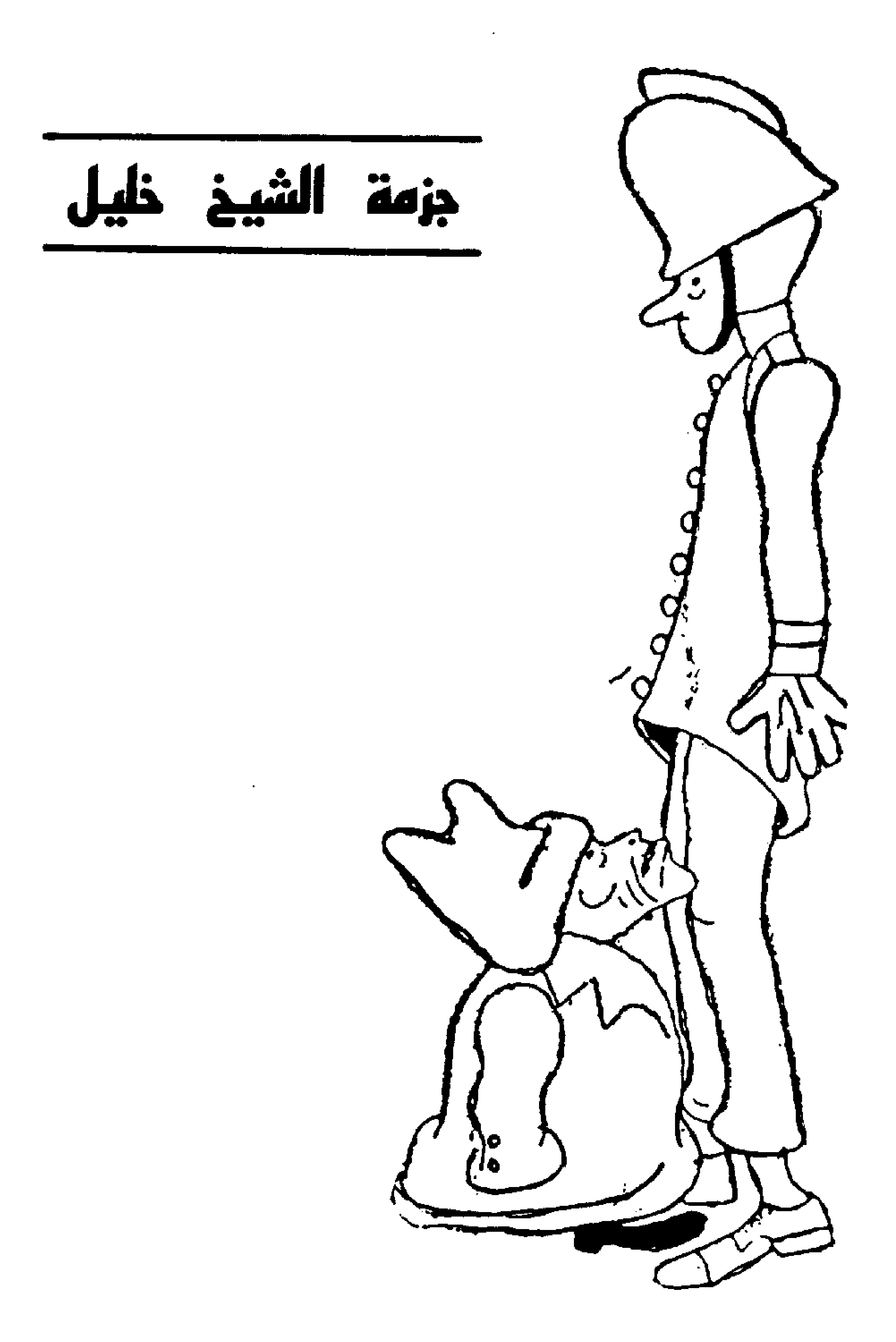
وفى بلاد الانجلو ، عريان ملط تمشى لا احد ينظر اليك ، بالفانلة واللباس تسير لا أحد ينتقدك ، بطرطور على الرأس وحافى القدمين ، لا أحد يهتم ! حياتك ملكك وانت حر ، ولكن حذار ان تسرح بحريتك الى خارج حدود حياتك . حذار ان تدس انفك فى شئون الغير ، انت مثلا حر فى ان تسير فى الطريق وتضبش فى الميه ، ولكن حذار ان تطرطش المية على ثياب الآخرين !!

انت فى بيتك حر اصنع ماتشاء ، اسهر للصبح ، اسكر للفجر ، ارقص لما بعد الظهر ، ولكن صوتك يعلى لا ، ازعاج مفيش ، راديو مفتوح على البهلى مفيش ، قشر رمان قدام باب البيت . . ينخرب بيتك على طول ، جردل ميه وسخة على رءوس الجيران . . . تروح فى حديد !

من أجل هذا دخلت لندن فى قلبى ، وأحببتها دون بلاد الخواجات كلها . لأن باريس ليس مثلها . . . فشر !! وروما ليست على شاكلتها . . وبرلين ليست زيها . أنا رأيت فى باريس سفير فرنساوى واقف وشه للحيط وقفاه لحضرتنا ومبسوط وواقف ينفك م الحسرة !

وشفت فى روما عشرين عيل فى شارع فيافينتو واقفين على الناصية وهات يا تهريج ، وهات يازعيق ، وهات ياتلطيش فى خلق ربنا .
وشفت فى مدريد واحد مجذوب وشعره مجدول وحافى وماشى يزعق بالصوت الحيانى .. مدد ياسيدى سان ماركو يابو العواجز ياكريم !!
وشفت فى فيينا عسكرى واقف تحت سور الجنينة ونايم ومرتاح ومتكيف آخر كيف ، ومنسجم ولا عسكرى المرور امام المسرح العايم عند كوبرى الجامعة .
ولكن لندن فيها هى الاخرى ما يكفيها .
صحيح ان كل شىء يجرى فى فلك معلوم ، ولكن كل واحد هناك وعنده من الهموم اشكال على ألوان .. ياقماش الباتستا !
والحياة تمضى فى الظاهر عال وفى الداخل اعوذ بالله اللهم احفظنا واللهم اكفنا الشر .. آمين .
ويموت الانجليزى حزنا على كلب جربان ، ويموت البنى آدم جوعا فى لندن ولا احد يحزن عليه . وتقتل البنى آدم الوحدة فلا احد يزوره ، ويموت فلا أحد يكتشف جثته الا بعد ان تفوح الروائح والعياذ بالله .
دنيا عجيبة وغريبة هى دنيا لندن ، وحياة ما أعظمها وما أعرضها ، ولكن عند العبد لله ، حفنة تراب من مصر ولا ذهب لندن كله ، ومطب واحد من شوارع القاهرة ولا أسفلت لندن كله . وقعدة على شط النيل جنب بيتنا فى الجيزة ولا سهرات لندن كلها . ويالندن .. انا معجب صحيح ولكن محسوبك يموت فى دباديب مصر .

جزمة الشيخ خليل



من أعمق أعماق أغاوير بطن العبد لله أتمنى على الله ولا يكتر على الله أن أكتب لكم كما اتكلم . ذلك أن المطبعة تتلف أمل الكلام فتجعل له أكثر من معنى وأكثر من منحى . كلمة تكلفت مثلا بمعنى التكلفت وليست بمعنى التكاليف . يقال فلان يتكلفت فى الشتاء خوفا من البرد اللعين . والبنى آدم ياهوه يتكلفت اذا كان ضعيفا ورقيقا مثل حالى ، ورقيقا ليست من الرقة ولكن من الفقر الزؤام ، ذلك لأنك لو كنت ثريا ألمظيا لما تكلفت فى الشتاء ، لاننى رأيت مع عبدالوهاب بالطو أسود فى لندن تستطيع أن تطويه فى جيب بنطلونك فلا أحد يراه ، واذا ارتداه دب أبيض فى القطب الشمالى لمات من الزمته والحر الشديد

المهم اننى كنت أريد أن أقول اننى قبل السفر الى لندن بأسبوع تكلفت فى هدوم فشر هدوم مأمور قرية فى صحراء سيبيريا . . لباس طويل حتى الكعبين صنع المحلة ، وفانلة صوف بوبر بأكمام طويلة مخرقة كوريشة ، وصديرى بلدى يصلح خالص لواحد بياع بصل ، وقميص افرنجي وبدلة صوف انجليزى . وبلوفر كشمير معتبر وشراب صوف المحلة ، وجزمة برقبة استلفتها من جدى الشيخ خليل ، وشمسية من شماسى منوف ، تصلح ضد الشمس فى الصيف ، وضد المطر فى الشتاء ، وتصلح خيمة اذا ضللت طريقك فى الصحراء ، وتصلح للبيع اذا أفلست فى يوم من الأيام !

وفوق هذا كله بالطو من بلاطى غزة كان فى يوم من الايام على جسم واحد بوكسير كالسيد ليستون ، ثم باعه فى نيويورك فألقت به الريح الى شاطىء غزة ، ثم ألقت به الريح من غزة الى اكتاف العبد لله ، مصير أسود للبالطو بلا شك ، ومأساة تقول ان العالم صغير ، وأن البالطو ذو حظ حقير ! وفوق هذا كله بالطو آخر مطر ، أهدانى اياه ـ وأهدانى دى ، هى كلمة الدلع لمعنى آخر اسمه شحتنى

اياه الصديق الكبير - الكبير سنا ومقاما - عبدالحميد الحديدى وكيل وزارة الثقافة والارشاد . وأشهد أيضا أنه بالطو مش ولابد ! وانني حاولت بيعه بجنيه واحد في لندن فلم أفلح . أقصد انني عرضت البالطو للبيع وفوقه جنيه لمن يقبل شراءه ، فلم يتقدم أحد !

ارتديت هذا كله وعلى ذراعى بالطو آخر استلفته من عمي حامد السعدنى لعله شحته هو الآخر عندما كان يعمل مدرسا فى ليبيا ، وعلى رأسى طاقية صوف بودنين من النوع الذى يستعمله السادة الشيالين فى باب الحديد ، ورحت بهذا كله أطوف بمحلات بيع الثلج ومصانع الثلج ، وأشرب كوكاكولا مثلجة عن طريق المهربين الذين أقلعوا عن تهريب الحشيش واحترفوا تهريب الكوكاليش ! فقد قالوا والعهدة عليهم أن لندن كلها ثلج أبيض فى أبيض كأنها عفريت الشيخ زنجير ، وقالوا انها ضباب فى ضباب ، وبرد فى برد ، وريح مسمومة بعيد عن القارئين .

وأسبوع كامل وأنا أطوف القاهرة بهذا الزى العجيب . . رجل محسن طيب رآنى على هذه الهيئة فحط ايده فى نص فرنك ظنا منه انني خارج توا من مستشفى أبو الريش ، ومحسن طيب آخر عندما رآنى هرع الى أقرب تليفون فقد ظن الطيب المحسن انني خارج من فوق سور مستشفى المجاذيب ، ومحسن غير طيب عندما لمحنى حاول أن يجرى من قفا البالطو ليبيع لى الترماى ! . .

ولكن العبد لله لم يهتم أبدا بنظرات الناس ولا برأى الناس ، هكذا بدأ القادة الكبار والمفكرون العظام اذا كانوا على أبواب مشروع عظيم أو فى الطريق الى غزوة فى سبيل الله ، وأنا فى الطريق الى لندن . ولندن كلها برد وكلها ضباب وكلها ثلوج ولا ثلوج كليمنجارو ، وحانت لحظة الرحيل وكل شيء عال العال الا هذه الجزمة أم رقبة وقطعتين أستك على الجنبين . . وفكرت فعلا فى خلعها على باب المطار ، ولكن خفت أن يستولى عليها مندوب الحجر الصحى باعتبارها وباء ، أو يستولى عليها مندوب الزراعة باعتبارها آفة من الآفات .

وما كان أغرب منظرى وأنا أسحب هالة الى الطائرة وهى فى ملابس عصرية ، وأنا فى ملابس منوفية ، والمصيبة أن الطيارة طيارة هندية . وفضيحة العبد لله ستكون دولية وعلى أوسع نطاق ، والطيارة هندية صحيح ولكن بوينج والارض باركيه ، وعفشة المية لوكس . وفى الطيارة ثلاثة صالونات وصالة ، ولو كان حول الطيارة جنينة ، ولو كانت الطيارة واقفة فى شارع النباتات بجاردن سيتى لدفع فيها واحد دغف مثلى ألف جنيه خلو رجل وايجار شهرى عشرة جنيهات !! . .

وانكمشت فى الكرسى مكسوفا من منظرى وسط الخواجات المهلبيات ،

وظللت مكسوفا حتى انطلقت الطائرة فى الجو فى طريقها الى جنيف من أعمال سويسرا : وتذكرت وأنا فوق الدلتا عمنا الكبير يوسف وهبه عندما كان يمثل أى رواية فيحشر فيها عدة كلمات مخاطبا أمينة ، فاكرة يا أمينة لما كنت فى سويسرا ـ بضم السين وفتح الواو وتسكين الياء ـ فاكرة يا أمينة لما كنا فى سويسرا بنتزحلق على الثلج ، الثلج اللى فكرنى بجلبية الفلاح اللى بيعزق كدهه !!

وانبسطت لان كرسى الطيارة كان صغيرا ككرسى عجلة فلا أحد يرانى ولا أحد أراه ، وقلت الحمد لله الفضيحة مؤجلة حتى نصل الى جنيف ، وقد أرفض النزول فى جنيف فنؤجلها حتى لندن ، ولكن البنت هالة المزغودة نظرت من شباك الطيارة وكنا فوق الاسكندرية وقالت هيه الطيارة ليه مابتمشيش ؟ ولم تكن الطيارة تمشى فعلا كانت معلقة فى الفضاء ، لا معالم حولنا لكى ندرك أننا نطير . . معنى ذلك أننا بدون شىء حولنا لا يصبح لوجودنا معنى على الاطلاق ، لولا الناس الذين حول طه حسين مثلا لما أدرك هو نفسه انه مشهور ، ولولا الناس الذين حول النادى الأهلى لما أدرك النادى انه مهزوم ! وأنا أدرك اننى أطير لأنى أعلم ان الجو ليس فيه معالم ، وان الطيارة تطير رغم انه لا يوجد حولها شىء يدل على الطيران .

ولكن هالة صغيرة لا تدرك معنى الطائرة ولا تدرك انها طيارة ، فلما نظرت من النافذة أدركت أنها لاتمشى ولم تفهم معنى لوجودنا فى هذا الصندوق الطويل العريض مادام الصندوق لايتحرك ولايطير ، وطلبت منى هالة أن أسمح لها بالنزول ووقفت تريد الخروج بالفعل ولكنى منعتها بشخطة حمشة الزمتها مكانها فى الحال ، ولكن رغبتها فى مغادرة الكرسى والنزول من الطيارة كانت أقوى من الشخطة . . فتوسلت الى العبد لله أن أسحبها الى الحمام ، يادى الفضيحة المهببة ياناس ، سأضطر اذن للوقوف بهذا المنظر العجيب وسيرانى كل الخواجات وكل المسافرين ! وتوكلت على الله ولفعت هالة على كتفى الى الحمام .

كانت الطائرة مزدحمة ولكن لم يكن فيها خواجات ، كل الذين فيها هنود بجلاليب وشباشب وعمم ولا عمم المجاذيب فى مولد سيدى وهدان ، وناس من انصار السيد العظيم غاندى بلا هدوم على الاطلاق ، وناس بدقون وناس بشعور وناس بعكاكيز . وخيل الى بعد لحظة اننى سأسمع بعد قليل بدلا من أزيز الطائرة صوتا يقول عشا المسافر عليك يا كريم .

وانتفشت غاية الانتفاش ، وانتعشت كثير الانتعاش واحسست أننى أعرج فى طيارة مكسحين ، وأعور فى طائرة عميان ، واننى لورد ابن لورد ومن نسل أول لورد ولوردايه ركبا مع حيوانات سفينة نوح !

وأصحت الحكاية سبهللة ، والطيارة أصبحت ولا حارة وزة وانا الولد العايق

فى الحارة ، والمعجبانى أبو سمرة السكرة ، وفكرت فى الوقوف على ناصية الطيارة اعاكس بناتها ، وأضرب بالطوب شيوخها ، وأغازل البنت المضيفة بأغنية أنت وعزولى وزمانى حرام عليك .

ووصلنا الى جنيف فى ثلاث ساعات ، ذهبت هالة خلالها عشر مرات الى الحمام ، وبعد ساعة كمان . . كنا فى باريس ، وبعد نصف ساعة أخرى كنا فى مطار لندن ، هذه لندن اذن عاصمة الانجليز .

وأنا على كثرة ما سافرت وعلى كثرة ماشاهدت وعلى كثرة مالفيت وما برمت لم أبرم ابدا ناحية لندن ، ولكنها كانت دائما فى خيالى لسبب غريب . فأنا لم أر الانجليز الا عساكر ، ولم أر من منازلهم الا كامبات ، ولم أذق من طعامهم الا البولوبيف ، ولم يتفاهموا معى الا بالبونيات والشلاليت ولم يتركوا فى نفسى أثرا . . أى أثر ، ولكنهم تركوا فى جسمى أثرا بالمطاوى وأثرا بالرصاص ، لذلك كانت لندن مكانا أسعى اليه بأحاسيس تختلف تماما عن كل احساس آخر استقبلت به كل المدن الاخرى على الاطلاق . . كنت أريد أن أرى الانجليز كما خلقهم الله ، شحاتين وشيالين وخدم فى المنازل ولوردات وناس لامؤاخذة زى البنت كريستين كيلر .

ها هى لندن اذن فى عز الظهر والساعة ١٢ بالتمام والكمال ، وجنيف كانت برد ، وباريس كانت أبرد ، ولكن لندن وياللعجب العجاب كانت مشمسة وكانت دافئة لاضباب ولا برد ولا ثلج . . الثلج فقط فى أعصاب الناس ، الراجل الواقف على باب المطار قرأ جواز سفرى فى نص ساعة ، وتفحصنى من فوق لتحت فى نص ساعة ، وسألنى عن فلوسى ومصدر فلوسى فى نص ساعة ، ثم سمح لى بعد ذلك كله بالدخول ولمدة شهرين اثنين فقط لاغير ! وسحبت هالة وخرجت ، وفى اتوبيس أنظف من أوتوبيس المدارس ركبت ، وهزنى منظر عظيم انى كنت واقفا أسأل سواق الاوتوبيس ، وطال الحديث بيننا وتبحبحنا فى الكلام ، وخد سيجارة يا انجليزى ، وخد الانجليزى السيجارة ودبها فى جيبه ، ثم جاء من خلفى رجل لورد وجهه شديد الحمار والحلاوة ، بدلته آخر طراز ، كرافتته بحفنة دولارات ، وهجم على السواق يسأل اياه بلهجة اكسفوردية ، ولكن السواق رده بلطف بالغ وقال للراجل اللورد أبو بدلة بألف جنيه وكرافتة بحفنة دولارات . . تمهل ياسيدى حتى انتهى من الكلام مع الجنتلمان ! أنا جنتلمان ! بهذا البالطو الغزاوى والكرافتة ماركة الحبل ، والجزمة أم رقبة ، أنا جنتلمان ؟ لو كنت فى القاهرة اتفاهم مع سواق وجاء رجل آخر اعرض منى قليلا أو أطول منى قليلا لعجرنى سواق القاهرة اياه على قفاى أو رقعنى على أم رأسى ، الناس هنا بالمظهر والمنظر والناس هناك بالادب والكمال ، وكلهم ناس وكلهم

عال العال وكلهم محترمون جنتلمون جمع جنتلمان . واذا كان فى ملة الاسلام لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . ففى ملة الانجليز . . لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالدور ! من يأتى أولا هو الذى له حق السؤال وحق الشراء ، وحق الدخول ! ومن يأتى أولا يأخذ أولا . . لا تقوى هناك ولا واسطة ولا يحزنون !

حملت شنطتى على دماغى ودخلت الاوتوبيس ودخلت هالة ورائى ولكنها سقطت على الارض وصرخت بالعربى آه يا دماغى يانا ، وهب جميع الجالسين ، انجليز على غير انجليز واندفعوا نحو هالة ، يساعدونها على النهوض ، وهبت امرأة عجوز فشدت قالب شيكولاتة من علبة وقدمته لهالة ، وأخذتنى الشهامة فشديت انا الآخر فطيرة مشلتته من شنطة ورق فقد كان معى زيارة فطير مشلتت من قويسنا لواحد بيتعلم فى بلاد الانجليز ، وقدمت الفطيرة للست العجوز فحملتها بين أصعابها وهتفت : أوه . . من أين ؟ قلت : من مصر ياسيدتى . . قالت : أوه هذا طعام الفراعنة . . من أى اسرة هذا الطعام الغريب ؟ قلت ساخرا : من الاسرة العاشرة ! وقالت المرأة العجوز الدردبيس ، يعنى العجوز برضه بس بالعربى الفصيح . . قالت : اذن سأحتفظ بها لعلها تجلب الحظ الحسن !

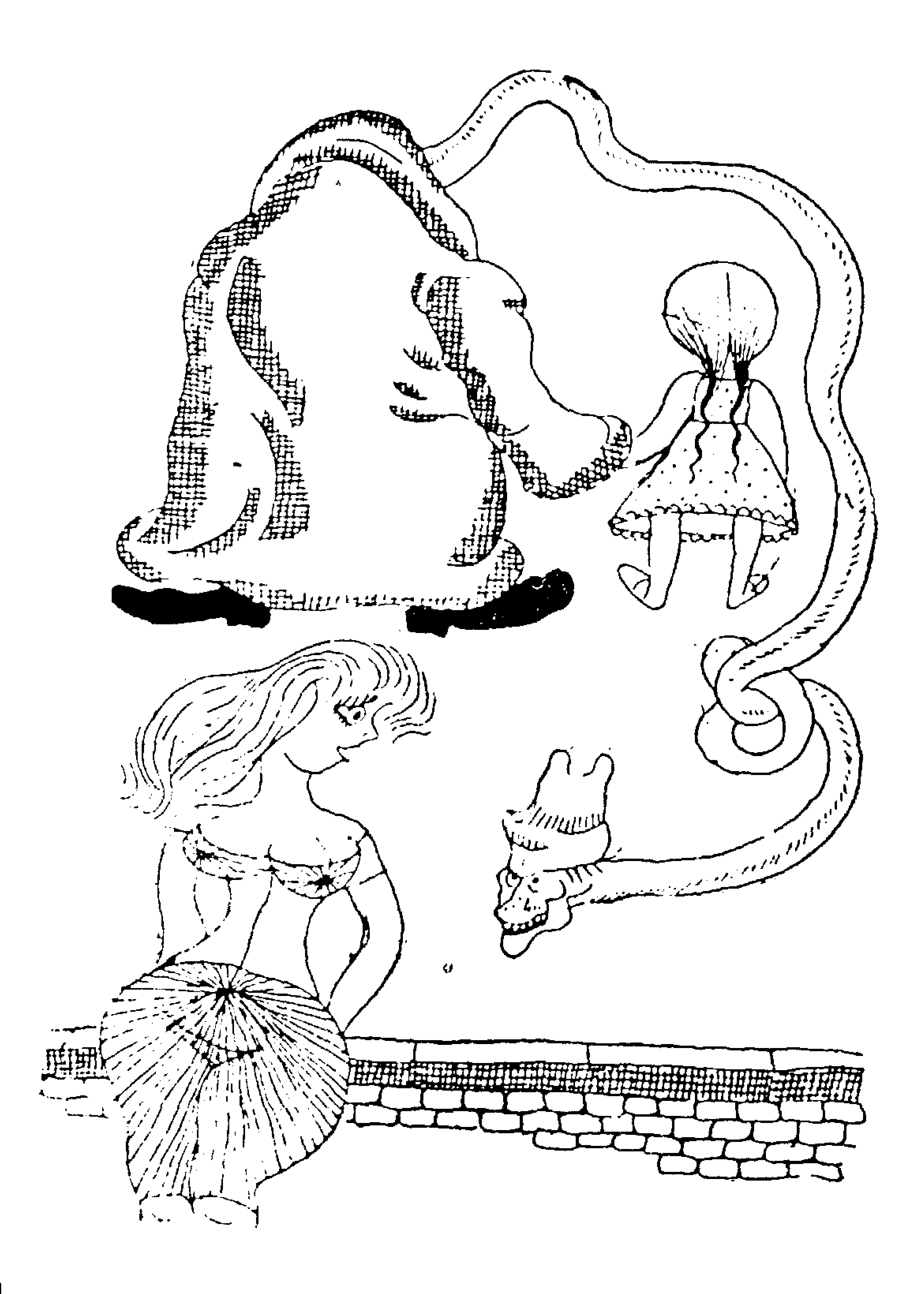
هل الانجليز سذج الى هذا الحد ؟ مغفلون الى هذا الحد ؟ أقول للمرأة مازحا أن الفطيرة من الاسرة العاشرة فتصدق على الفور ؟ ولكن عندما نظرت الى الفطيرة أدركت أن المرأة العجوز لم تكن غبية ولم تكن هفية ولم تكن ساذجة ، كانت الفطيرة مجلدة كورقة لحمة ، ناشفة كفردة حذاء قديم ، خبيثة الرائحة كأنها فطيرة سردين ، كانت « الزيارة » قد مضى عليها فى الشنطة عشرة أيام ، حتى تحولت الشنطة الى تابوت ، وتحولت الفطيرة الى الى مومياء ولكن بلا تحنيط ، وهممت بأن ألقى بالشنطة والفطيرة من نافذة الاوتوبيس ، ولكن رجلا شمروخا هب من مكانه وتقدم نحوى وقال وابتسامة غريبة مثل شكله على فمه الرقيق : هل تسمح وتهدينى لقمة من طعام آلهة مصر الاقدمين ! وقلت للرجل المؤدب المهذب : أنا آسف فلم يعد معى أى بقية من هذا الطعام المقدس العظيم ! ولكن الرجل أشار نحو شنطة الفطير وقال : ولكنى ألمح فى الشنطة مزيدا من هذا العيش القديم ! وانكسفت وقلت للرجل الانجليزى الطيب : ولكنى عالم آثار مصرى شهير وهذا الطعام هدية من المتحف المصرى الى المتحف البريطانى الشهير . . وقال الرجل : ليتك تعطينى ولو قطعة ولو لمطة . . ولكنى استأسفت ـ على رأى عمر الجيزاوى ـ للرجل الانجليزى فعاد الى مكانه من جديد . .

ولندن مدينة طويلة من حلوان مثلا الى القناطر الخيرية وربما من حلوان الى بنها ، ومن المطار الى قلب المدينة ساعتان فى الاتوبيس . . ولو ركب ريفى مصرى هذا الاوتوبيس ، لودعه جميع أهل بيته بالصوات واللطيم ، ولربما أخذ معه قفة فيها بتاو وجبنة قريش ليستعين بها خلال الرحلة الطويلة التى هى ساعتان لا تزيد ، والبنت هالة المزغودة بعد ساعة فى الاوتوبيس صرخت كالمجنونة عاوزه آكل ، وحاولت افهامها بالذوق والادب والضرب والشتيمة ان هذا ليس وقته ، وان هذا لايليق ولكن دون جدوى ، نظرت المزغودة الى سبت الفطير المشلتت ، وقالت : هات لقمة . وضربت يدى فى السبت وأخرجت فطيرة ، وناولتها لهالة ومن يد هالة الى فمها فلم يبق فى الفطير الا فتافيت . ولمحتنا الست العجوز والسيد المهذب الوقور ، ويانهار مهبب ياناس على الذى حصل بعد ذلك ، البنت هالة المسكينة التى كانت موضع اعجاب وعطف الجميع أصبحت مجرمة بنت مجرم . فقد أكلت على رءوس الاشهاد تراث مصر القديم كله ، ومضغت بأضراسها وأسنانها وثائق التاريخ كله ، ودفنت فى بطنها أثرا من آثار اعظم حضارة عرفها التاريخ ، وأنا المسئول لاننى خفت فكذبت فانفضحت وملعون أبو هذا الفطير المجلد الذى فضحنى فى لندن ، وفضيحة لو عرفوا اننى كذاب وأن هذا الفطير ليس من مأكولات العصر القديم ، وفضيحة أكبر لو عرفوا أن هذا الفطير طعام مستساغ وانه من مأكولات العصر الحديث ! . .

ووقعت فى حيص بيص والرجل الوقور مصر على استدعاء البوليس ، والمرأة العجوز أغمى عليها ومصرة على استدعاء الاسعاف ، والاوتوبيس واقف أو متوقف ، ولكن لا أحد ملموم علينا لاصياع هناك ولاضياع ولا واحد بقصة دارز جيوبه لب أسمر ونازل تأزئيز على رأى عمنا الكبير بيرم التونسى . .

ولكن كيف الخروج من هذه الورطة المهببة ؟ وماهو السبيل ـ الله يهون علينا . . وانتو يصبركم . .

الذى صور .. والذى كور



هربت من الاوتوبيس قبل ان يحضر البوليس ، فقد يكون الشاويش الاسكتلنديادرى من ريف انجلترا فيهرشنى على قفاى ، أو يعلقنى من ياقة جاكتتى ، أو يعجرنى كام رأس فى نافوخ حضرتى .

ومن نافذة التاكسى الذى يشبه تاكسى مزغونة وشبرامنت ونفر واحد قبل ما نتوكل على الذى لاينام ، من نافذة التاكسى هذا ودعت سبت الفطير وهو يتدحرج على الرصيف فى اتجاه عكسى ، وهتفت كما هتف سيدنا نوح : الا بعدا للقوم الكافرين !

ووصلت قلب لندن والشمس زاهية مرعرعة ، والناس الانجليز بالبنطلون والقميص نص كم ، وبعضهم بالبنطلون والفانلة ! والبنات بالبنطلون والبلوزة ، وبعضهن بالبلوزة ومن غير بنطلون !

وحكمة الواحد الاحد أن أحدا من الرجال لا يبص ولا يطل ولا يعوج رقبته ذات اليمين وذات الشمال ، كأن المسائل عادية ، وكأن اللحم الأبيض ليس فيه ما يدعو إلى البصبصان .

ولكن رقبة العبد لله النحيلة كرقبة أبو قردان ظلت تنعوج وتتقوس ، وكل نتفة بنت وبنت سبحان الذى صور والذى كور ، والذى خرط هذا القوام الذى فشر الغزال ، وكأن مصنعا هائلا رهيبا كمصنع البولوبيف يشفط من ناحية ، عظام وشعر وهناضيم لحم أبيض مشفى ويلفظ من الناحية الاخرى نسوان مدملجة مشكشكة حلوين حلاوة بتوع السينما !

ولكن أعجب العجب انهن فى الطريق كعساكر الرديف خطوة منظمة ، لا قصعة ولا لفتة ولا هىء هىء ولا مىء مىء ، ولا لبانة مدلدلة . ولا أحمر مسخسخ كأحمر البطيخ ، الحمار الموجود ربانى ، والكحل من عند الله الجميل ويحب الجمال . والفساتين بسيطة ولكنها تكاد تميل على اللحم الأبيض وتعض عضة أو تلهط لهطة آخر حشمة ولكن آخر هوسة !

وياميت خسارة ياولاد بلدنا على هذا الجمال كله يتمرمط فى أشغال بسيطة . خدامة ، غسالة ، جرسونة ، فاعلة ، ليست فاعلة خير ولكن فاعلة مبانى . ونادر جدا أن تعثر على واحدة دايخة . فأكل العيش فى لندن على قفا من يشيل . والفلوس كالرز ! ولو ان أى خدامة أو جرسونة أو غسالة . . من بنات لندن هبر فيها مخرج روائع أو مخرج فواجع لانتج لها ألف فيلم من الأفلام اياها . امرأة على الكوبرى ، امرأة على النخلة ، امرأة لها ماضى ، أمرأة بين امرأتين ، ثلاثة امرآت مع بعض . . الى آخر هذا الهرش مخ الذى نشاهده فى أفلام السينما المصرية عافاها الله !

ومضيت أتلفت على الحيطان والستات والفترينات ، الشارع طويل عريض فيه بضائع بتسعميت مليون جنيه ، وليس فى الشارع كله الا عسكرى واحد ، وليس مع العسكرى بندقية وليس معه عصاية ، البنادق لميدان القتال ولكن فى الشوارع ممنوع ، والعسكرى مع ذلك مهاب ومحترم على آخر درجة ، وهو نفسه يستحق المهابة والاحترام ، بدلة نظيفة وعلى آخر سنجة ووجهه مليح ووسيم كأنه ممثل فى الأوبرا ، ولذلك فهو محط أنظار السائحات المائعات . . !

وتسأل العسكرى من دول فيجيب ، وتسأله فيجيب ، وتظل تسأل ويظل يجيب حتى مطلع الفجر . واذا عجز عن الاجابة سحبك من دراعك كأنك صديق قديم الى اقرب تليفون للبوليس . فيسأل خواجا مختص للسؤالات فى قسم البوليس !

لندن ايها السادة والسيدات ادهشتنى وصدمتنى ، ما أحلاها فى النهار كأنها عروس تتبختر ! فاذا جاء الليل انقلبت الى سجن كبير ، لا دكاكين فاتحة ، ولا قهاوى منورة ، ولا سهرة حلوة ، ولا رصيف عامر بالاحبة والخلان .

العروس التى كانت تتبختر طول النهار . تنقلب الى عجوز تتكعبل وتتشنكل . مظلمة ولاقلب الكافر ، كئيبة ولا باشكاتب فى الارياف . . والسهر موجود أى نعم ولكن بقدح فلوس . انت هنا تطلب واحد شاى فى قهوة أول الليل ، وتلعب طاولة وتشتم الجرسون ، وتصفع الواد البوهيجى على قفاه ، وتضحك كأنك ميمون فى جبلاية قرود ، وتحطم الكراسى ، وتقلب الموائد ، وتخرج من القهوة آخر الليل وتدفع قرش صاغ للجرسون وتعريفة بقشيش وتمشى فى الطريق منفوخا كأنك أمير البحار نلسون !

وفى لندن اذا اردت أن تسهر فستدفع فى بضع ساعات مرتب شهر ، هذا على اعتبار انك موظف فى الدرجة الرابعة ، ومع ذلك فستخرج مكسور الخاطر لان السهرة مش ولابد ولان فى لندن سهرات لو هويت بالقرب منها لدفعت مرتب ثلاثة أعوام !

وفى شارع بيكاديللى . . وآه من بيكاديللى هذا يذكرنى بأيام زمان ، فى عام ١٩٤٨ ، ولا مؤاخذة - سافرت الى الاسماعيلية مع زميل صحفى اسمه بلال يشتغل الآن ناظر مدرسة ثانوية . وكان بلال طويل ونحيف وابيضانى وبشنب أصفر واصلع الرأس من الظاهر ومن الداخل أيضا .

فقد كان عقله مثل فروة دماغه نظيفا كأنه ممسوح بخيشة . وفى الاسماعيلية بار اسمه بيكاديللى دخلناه فى آخر الليل وجلسنا على ترابيزة أنا فى ناحية وبلال فى الناحية الاخرى وطلبنا بيرة ، وبعد شوب واحد لفت رأس عمنا بلال ، وراح يتفرس فى بنت حلوة مألوظة انجليزية مية فى المية تشرب بيرة هى الاخرى مع وحش اسكتلندى ، مشمر ذراعيه فى عز طوبة ، وفاتح صدره فى الصقيع . وعلى دراعه اليمين وشم اخضر فى لون البرسيم ، رسومات لبنات فى عدد شعر رأسه ، لعلهن اللواتى وقعن فى حب سيادته ، والرجل سكران طينة ، ومبسوط خمسة وسبعين قيراط ، ونايم مطمئن كأن احدا لن يجرؤ على البصبصة للست التى معه ، وكيف يجرؤ عاقل رشيد على معاكسة الظبى الذى فى حماية أبونا الغول ، ولكن بلال لانه بلا شعر وبلا عقل . . غمز للبت الحلوة فغمزت له ، وعند الانجليز الغمز غير ممنوع . . ولكن بلال معذور ، اذا غمزت لواحدة هنا فغمزت لك ، فهو غمز فلمز فهزار ! وظن بلال ان الحكاية سبهللة فنهض فرحان كأنه اشترى بدلة جديدة . وشد كرسى وجلس بين الست الحلوة والوحش القابع كأنه عكنف جبلى أصيل !

وقال بلال للست : أنا صحفى من كايرو ولو كان فى الامكان حديث معك يصنع ضجة ورجة ، واعتذرت البنت بابتسامة وقالت : آسفة ياحضرة الصحفى فلست فى العير ولا النفير . . واذا اردت حديثا فأذهب الى القائد البريطانى أو الى السفير !

وقال بلال : ولكنى أريد حديثا من نوع جديد . . الاحاديث الصحفية عادة من القادة والسفراء ولكنى اريد حديثا منك أنت ولا أحد سواك . فأنت اومباشية فى الجيش البريطانى . وصحيح انك لا فى العير ولا فى النفير . . ولكن هذا هو الجديد فى الحديث .

وقالت البنت متأسفة ، وقال بلال . لابد من الحديث . واستيقظ العكنف الجبلى النائم يحلم أحلاما سعيد على الحوار الناشب بين بلال والست الاومباشى . فقال سكرانا عدمانا لبلال : اذهب من هنا . وظن بلال انه هزار فأعاد نفس الاسطوانة على مسامع الشاويش .

ولكن الشاويش قال فى النهاية : أخرج من هنا . ولكن عمنا بلال رفض

الخروج . وما أغرب منظر العكنف الاسكتلندى وهو ينظر شزرا الى بلال الطويل الممصوص الابيضانى كما البريصة الاصفهانى .

وبلال ينظر نحوه مندهشا مبتسما كأنه عبيط ! وفجأة هوى الاسكتلندى بذراع كالمرزبة على دماغ بلال فألقى به من النافذة الى الشارع يجرى نحو المحطة ومن خلفه الاسكتلندى وأنا أمام الجميع ! ولايزال بلال يجرى حتى هذه اللحظة . . فأنا لم أره منذ تلك الليلة . . ليلة خروجه يجرى من بيكاديللى الى المحطة والى حيث لايرجع والى حيث لا أراه .

عندما وصلت الى بيكاديلى تذكرت بلال . . وتلفت حولى لعلنى أراه . فمن يدرى لعله ظل يجرى عابرا القفار والبحار حتى استقر فى لندن . وهى ليست نكتة وأيم الله ، فقد صادفنى جزار مصرى فى لندن ، مسكين عيان عيا أزلى سافر الى لندن للعلاج شفاه الله . التقيت بصاحبنا الجزار فى ماربل أرش ، وتوسم فى العبد لله أننى مصرى وأننى ملسن فى اللغة العربية وانه يستطيع أن يتفاهم معى على بركة الله . ووقف صاحبنا يتفرس فى وجهى قليلا ثم قال بلا احم ولا دستور . قهوة مصر فين يافندى ؟ قهوة مصر ؟! ويافندى ؟! ولم أرد عليه ، تقدمت منه ، وكفك ، ودقينا الكفوف ، وباس أصابعه الخمسة بعد السلام . وبعد الكلام فهمت انه يرغب فى الذهاب الى قهوة مصر . حيث اعتاد عشرات المصريين من تلامذة وطباخين ومتعالجين الجلوس هناك !!

المهم اننى وصلت الى ميدان بيكاديللى الشهير وانكسفت !

انه بالتمام والكمال مثل العتبة قبل الحرب . ولكن من بيكاديللى تتفرع كل الشوارع الهامة وكل الطرق الرئيسية ، انه صرة المدينة ، واذا أردت ان تلتقى بأحد أو تقابل احدا فاجلس فى بيكاديللى وانت حتما ستراه . . .

وصلت هذا البيكاديللى ووقفت مكسوفا من منظر الميدان ومن نفسى ، الكل هنا عرايا الا العبد لله ، لابس بشت وغبيط وكميخة تصلح لشحات فى أول الموسكى ولاتصلح لسائح مثلى فى بلاد الانجليز . حتى الشحات فى لندن انظف من العبد لله وأوجه . الشحات هناك ببدلة صوف هايلة وكرافتة توتال وبين يديه كمنجة وهات يا أنغام . الناس هناك تشحت بالموسيقى ونحن هنا نشحت بالصوت والعياط واللطيم .

أنا أعرف شحاتا كان فى الجيزة منذ ربع قرن . كان يطوف شوارع المدينة كلها يضرب صدره العارى بطوبة لو سقطت على رأس ثور لصرعته فى الحال !

أقول أننى انكسفت من منظر الميدان ومن منظرى فقررت أن أخلع هدومى وأن أصبح مؤضة . ولن يحدث شيء مخل بالآداب اذا انا خلعت هدومى . فأنا لا ألبس هدوما . . أنا ألبس هدائم جمع هدوم ، ومهما خلعت فسيظل على

جسمي هدوم حتى لو قضيت اسبوعا كاملا أخلع وآخلع فانني لن أصل الى القاع الا بمعونة من رجال المطافىء .

وتوكلت عل الله وخلعت بالطو المطر والبالطو الصوف والبالطو الغزاوى . والبلوفر أبو كمام والبلوفر نص كم والجاكتة والقميص . ووقفت فى الميدان بالفانلة والبنطلون والطاقية الصوف ، وانشرحت غاية الانشراح فقد تحررت أخيرا والحمد لله . وبسطت ذراعي نحو الواحد القهار أحمده على نعمائه ، ويبدو أن بسط الذراع لم يكفني لشكر الله ، فهتفت من أعماق مصاريني : يارب . وفجأة انطلقت نحوى عبر الميدان عدة طوابير من الناس . أمريكان على ألمان على طليان على نمساو ظنا منهم انني حاوى هندى سأعرض ألعابى وسآكل السيف وأمشي على جمر النار .

وعندما اكتشف السياح ان ملابسي ليست لداعي السحر ولكنها لداعي العياقة تركوني وانصرفوا آسفين . . ولاتتصور انهم سياح مثل سياحنا ، حتى السياح فى لندن مختلفون عن السياح فى مصر . . السائح هنا عجوز كركوب فى حاجة الى نعش ، يجر امرأة واعية على فحت البحر ، ومعه فلوس وفلوسه صعبة . . غالية . . والسعر هنا مهما غلا رخيص بالنسبة لافقر وأحقر بلد فى أوربا . . وعلى ذلك فالسائح هنا باتنين جنيه استرليني فى اليوم يعيش كباشا من باشوات زمان ، فما بالك لو عاش بعشرة جنيه أو بعشرين ؟

ولكن سياح لندن شيء يختلف ، تلاميذ بقصة مدلدلة على الجبهة وكلهم فى البناطيل ، لا تعرف التلميذ من التلميذة الا بفراز يفرز ويعرف . وغير التلامذة ناس غلابة معهم خيمة ووابور بريموس وعدة شاى وشوية شلنات وفى رحلة الى كل اوربا . . وهم بالنسبة الى سياح بلدنا ليسوا سياحا ولكنهم سياع . . وانا نفسي . . تصور ! دخلت فى زمرة السياح رغم الهم والغم والفلس الشديد ، وركبت مركبا بخاريا فى نهر التايمز . . وفى المركب ترجمان راح يروى على طول الرحلة قصصا شائقة عن كوبرى واترلو وعشرين كوبرى اخر يربط لندن من الناحيتين . وعلى الضفة الشرقية القديمة فانوس نور حكومة بالغاز . قال الراوى ان بالقرب منه كانت توجد حانة يسهر فيها شكسبير ويسكر ، وان فانوس النور ورد ذكره فى روايات شكسبير ، وبيوت مهدمة متآكلة كأسنان العجوز ، قال الترجمان انها كانت سكنا للشاعر الفلانى . . وللكاتب الفلانى . . والرسام الفلانى !

احترام كامل وكلى وبلا قيد ولا شروط لكل الفنانين والكتاب حتى هؤلاء الذين لم يحظوا بشهرة ولم يكسبوا مالا ولم يذهب صيتهم فى التاريخ . ومع السياح

أيضا دخل العبد لله قلعة لندن الشهيرة . ووقف الترجمان ـ ياميت فل على جمال هندامه ـ ووقف يشرح ـ والعصا الرشيقة فى أصابعه وكأنه مايسترو ـ تاريخ القلعة . . والجرائم التى ارتكبت فيهاوالرءوس التى طارت فى دهاليزها ، والدم الذى جرى على بلاطها وتناثر على حيطانها .

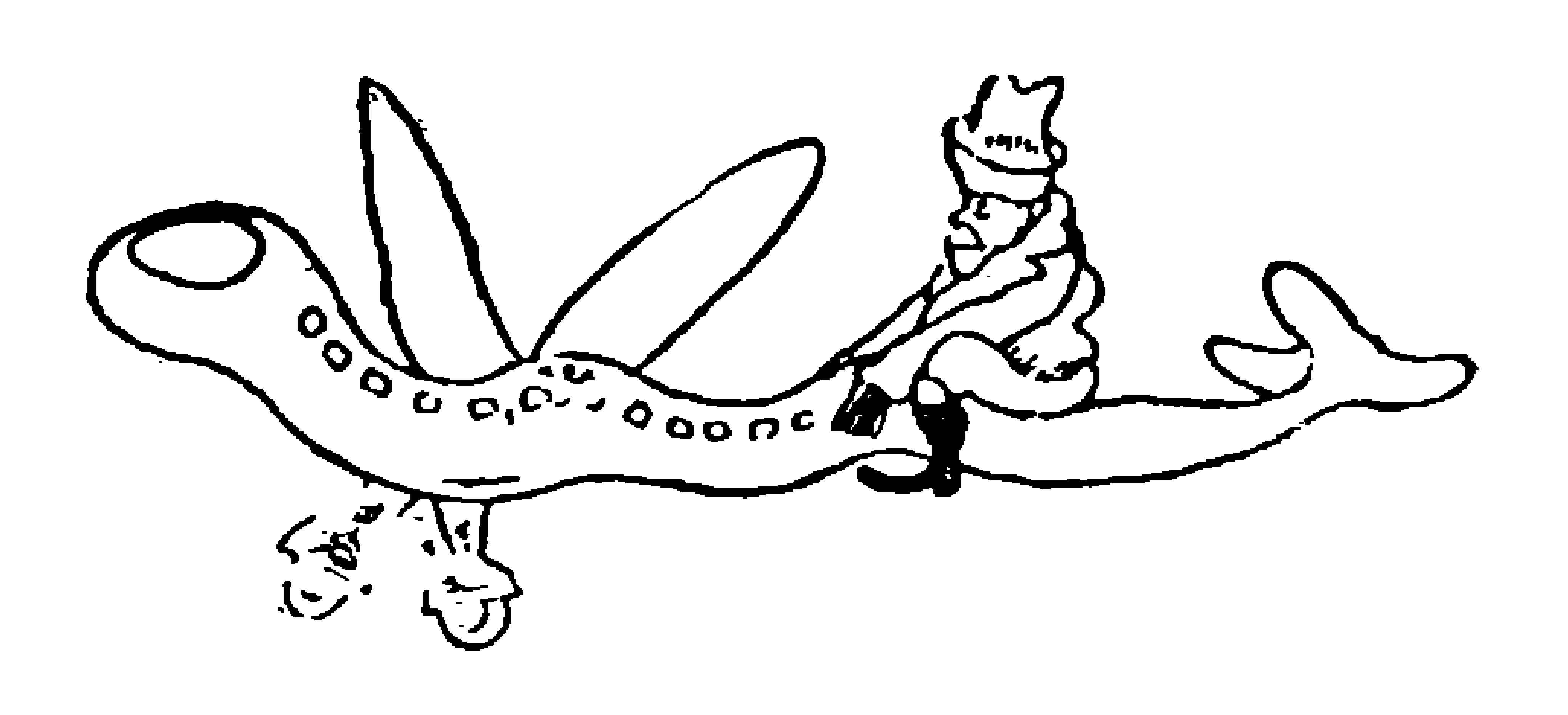
وقال الترجمان والناس فى ذهول أن قلعة لندن شيدت منذ مش عارف كام ميت سنة ، كام ميت سنة ؟ يادى الوكسة الشديدة !! على بعد مرمى طوبة من منزلى يوجد أثر منذ ستةآلاف عام زرته مرة واحدة وأقسمت بسيدى المتولى الا أعود اليها أو أعود اليه . فقد كنا منذ ثلاثين عاما تلاميذ فى أولى ابتدائى . . ونظموا لنا رحلة الى هرم الجيزة . وانطلقنا الى هناك وعلى رأسنا مدرس تاريخ للشرح ومدرس العاب مجنون لحفظ النظام . . وعند هرم خوفو وقفنا فى صف طويل وتولت عصا مدرس الالعاب تنظيمنا ، وعلى وقع نغمات اللهلوبة فوق اكتافنا وظهورنا ولحم جثثنا . . بدأ مدرس التاريخ شرحه . . وبكيت وهو يشرح من شدة الضرب . . وتمنيت أن تسقط أحجار الهرم حجرا بعد حجر وتتدحرج فوق رأس الخوجة وفوق رأسى ، وأقسمت من تلك الزيارة البعيدة على ألا أعود اليها ولا أعود اليه . .

ولكنى ذهبت بعد ذلك مرة اخرى وأنا فى الثلاثين من عمرى . . ووقفت أتأمل ترجمانا يرتدى زى مخبر ، لاسة وجزمة برقبة وعصا طويلة رفيعة لهلوبة وشنب برفارف . والترجمان اياه عاكم خواجا وخوجاية امام الهرم وهات ياشرح والخواجا مفتوح الفم مذهول والخواجاية تكاد تركع وتصلى للكلام الفارغ الهايف الذى يتقيؤه الترجمان ، وآل ايه « هذا الهرم ـ هكذا يشرح ترجمان بلدنا ـ هذا الهرم كان فى الضفة الاخرى من النهر ، ولكن فرعونة زوجة فرعون طلبت اليه ذات صباح أن ينقل الهرم من مكانه الحالى . . وقد كان . . ونفذ فرعون الامر ! »

المهم انى قضيت مع السياح والسياع يوما كاملا فى قلعة لندن ، الدخول بتذاكر وليس بالتساهيل ، وكل حجر عليه تعليمات مكتوبة وتاريخ كل طوبة تجده مكتوبا على يافطة . . والناس كلهم . . الذين يتفرجون على القلعة اغراب ومن بعيد . . ولذلك ماأحلى النصب عليهم ، وما أحلى الخطف منهم . . وتسأل وانت مذهول هل الانجليز نصابين ؟ هل غشاشين ؟ هل دجالين ؟ وأقول وانا مستريح الضمير نعم . والف مليون نعم ! الانجليزى من دول يفك لك الجنيه ويلهف بريزة ويرشدك الى شىء ويطلب البقشيش . . ويخمك ويخطف متاعك . . ويستلبخ سيادتك ويبيع لك خيش على انه أرقى انواع القماش فى العالم . . وبعض الانجليز يتألمون من حال لندن ويقولون : « لم تكن مدينتنا

هكذا أبدا قبل خمس سنوات ولكنها تغيرت كثيرا » ولكنهم لانهم انجليز ولانهم قلطاء .. جمع قليط .. فالعيب كله من الملونين ، بعبارة أخرى ، كانت لندن جنة ، كانت أرض الاحلام حتى جاء الملونون فأفسدوا فى الارض .

منطق انجليزى غريب .. لأن النصابين والخطافين انجليز ولاد انجليز وليسوا من أفريكا ! على أن أغرب واعجب شيء رأيته فى لندن ليس الكوبرى وليس النهر وليس الثراء والفراء .. ولكنه شيء آخر ! لم أكن أتوقعه ولم أكن أتخيله ! الشيء الذى عندما رأيته تصورت نفسى فجأة انتقلت من لندن الى حى المبيضة .. فى سيدى القللى .. فلا يمكن أن يحدث ما أراه الا فى الدراسة والمدبح وشارع سوق السلاح وشارع بين النهدين !





أبودراع بتاع الانجليز



المنظر الذى رأيته فى لندن ولطمت ، منظر رجل قصير بدين مفتول العضل واقف وسط الميدان عريان ملط زلط الا من مايوه مشجر ، فحسبته يتشمس على طريقة الانجليز عندما تشرق الشمس ولو للحظة ولو لهمسة ولو لفركة كعب . . ولكن الرجل القصير البدين الزلط ملط يزعق بصوت ولا صوت أبو دراع .

وحسبته مطرب شعبى انجليزى ، وكدت أطير من شدة الفرح ، فلو انه مطرب شعبى انجليزى بصحيح فسيكون هذا الرجل اكتشافا مابعده اكتشاف . . وسيكون هدية فاخرة ومحترمة للصديق زكريا الحجاوى فلربما استدعاه الى القاهرة وسحبه من ذراعه الى الموالد والاسواق .

وفكرت وأنا أعدو فى اتجاه الرجل الزلط ملط ماذا يمكن أن تكون اغانى هذا الفنان الشعبى الانجليزى ؟ وهل هى مثل اغانى أبو دراع ومحمد طه وخضرة محمد خضر ؟ أم أنها اغانى تعكس تاريخ بريطانيا المستغلة القوية المعتدية التى اغتصبت دم الملايين من الناس فى أنحاء الأرض لتتعطر وتتغندر وتصبح سيدة البحار السبع !

وهل ياترى سيقف هذا المغنى الشعبى الانجليزى وسط الميدان ليغنى بصوت حزين حزن الولايا الدايخة ، آل يالمون لامونا العوازل واحنا لم لمنا . . وياخوخ خنونا الحبايب واحنا لم خونا . . يامشمش مشينا فى هواهم وهمه لم مشيوا . .

هل سيغنى المطرب الشعبى الانجليزى على طريقة المعددة على العواذل والحبايب والمشى اللى مشيناه وهمه لم مشيوا ! أم سيغنى بأسلوب آخر ، عكسى ومختلف . . ويا لمون لمنا العواذل وهمه لم لاموا ، وياخوخ خنا الحبايب وهمه لم خانوا . . ويامستعمرات بمدافع هبشناها وهمه لم هبشوا ، وياشعوب خطفنا طعامها وهمه لم خطفوا . . ويابلاد نهبناها وسرقناها وهمه لم سرقوا . الا نذر علينا يا أسطول لو عدنا كما كنا . لنركبك ياأسطول ونلف الكون كما كنا . . ويجيب مستعمراتى قصاد عينى وأركبها كما كنا .

على أية حال هذا المطرب الشعبى البريطانى لقطة .. وسواء ، قال هجر الحبيب ذلنى ، أو قال العدوان الثلاثى هزنى ، فهو نموذج يصلح للفرجة ولفرقة زكريا الحجاوى .

وانطلقت كالسهم نحو الرجل الزلط ملط وسط الميدان واذا بى اكتشف حقيقة أخرى أجدع وأروع ... هذا الرجل ليس مطربا شعبيا ولكنه شجيع يركب العجلة ويأكل المسامير ويشفط نار جهنم فى بطنه ، ويطلب من خمسة جنتلمان تكتيف البطل الشقيان ، ثم يطلب فى النهاية من كل جنتلمان أن يضرب ايده فى جيب بنطلونه ويطلع شلن عشان خاطر القديس يوحنا والقديس انجليوس . شجيع بعجل وحبال فى قلب لندن ، ولكن هذه هى لندن ، ولاتزال كما قال تشارلز ديكنز مدينتين لامدينة واحدة ، وعاصمتين لاعاصمة واحدة ، وشعبين وان كان العبيط يتوهم لأول لحظة انهم شعب واحد .

فى لندن وفى شوارع كوينز واى .. وبالعربى اسمه طريق الملكة . كازينو للقمار رأيت فيه كبشة رجال وحفنة نساء يسهرون كل ليلة حتى الصباح ويخسرون ليس مائة جنيه وليس ألف جنيه ولكن عشرات الالوف ومئات الالوف ويدفعون بالشيكات .. وعلى باب الكازينو سيارات من نوع الرولزرويس والموزلى والهمبر والاوستن .. سيارات لو تركب فيها من الجيزة فتستطيع أن تنزل فى شبرا دون أن تتحرك السيارة ، ذلك أن طولها شهر وعرضها شهر ، وفيها سواق يرتدى ملابس فشر ملابس اميرال فى الاسطول الانجليزى .

وعلى رصيف الكازينو فى النهار .. رأيت عشرة رجال معهم قفص فراخ وواحد منهم يلعب فوق القفص لعبة الثلاث ورقات وفتح عينك تأكل ملبن واحسن من السرقة والتهليب وكافة شىء يغضب البابا .

وعجبى أن البشر فى ظروف متشابهة يصنعون نفس الشىء .. الرجل الانجليزى الذى كان يلعب الثلاث ورقات لولا أنه أشقر لحسبته فتوة من فتوات عشش الترجمان .. شعر سيادته محلوق مروحة ، وأسنان سيادته كلها ذهب عيار ٢٤ ، وجزمة سيادته كعب كباية ، وفى جيب الجاكتة منديل أصفر ، رغم ان البدلة كحلى ومع المنديل صف اقلام حبر لابد متعلقة من جيوب الناس .

واندسيت وسط الصفوف الملفوفة حول القفص والثلاث ورقات ، وكنت قد أصبحت موضة كأهل لندن .. بالفانلة الصوف والبنطلون وحتى الطاقية ام ودنين .. ألقيت بها فى الطريق فشمها كلب ثم عوى وراح يجرى كالمجنون كأنما يبحث عن مجرم ترك وراءه هذا الاثر الرهيب . واضطررت أن اخذها من جديد حتى لا يتبعنى الكلب الرومى ويفضحنى الى يوم الدين .

وحاولت العب مع بتوع الثلاث ورقات ولكنى خفت ، فأنا اعرف سر

اللعبة ، ولو لعبت فسأربح وعندئذ قد يغزنى الرجل أبو سنان دهب بالمطوة الى
تلمع من جيب الجاكتة خلف صف الاقلام .
هكذا الحياة فى لندن أيها الخلان ، ناس تنفق ألوف الاسترلينى كل مساء على مائدة القمار ، وناس تلهف أكل عيشها عن طريق قفص فراخ وثلاث ورقات .
ولكن الحق أقول أيها الخلان . . هناك فى لندن مستوى للحياة ، فلا احد بلا جزمة ، ولا أحد بلا بلوفر ، ولا أحد اذا دهسه أوتوبيس بلا علاج .
وآه من المستشفيات والتمرجيات والعلاج فى لندن . لندن مستشفى أيها الاصحاب ، ومحل للبيع والشراء ، وسوق فنى مفتوح على البهلى لكل فنان ولكل مفنن .
فى لندن شارع اسمه شارع هارلى كل مافيه دكاترة . . وكبار الدكاترة هناك يلقبونهم بمستر ولا يخلعون عليهم لقب دكتور .
المستر الذى كنت أنا ذاهب اليه اسمه مستر او سمان كلارك . . وتقابل سبحانه جل جلاله ولا تقابل مستر او سمان كلارك ، ولكن عشمى فيه كان كبيرا وأيم الله . . فبينى وبينه صلات دم وقرابة . . فالرجل المستر اسمه أوسمان وأنا اسمى محمود عثمان السعدنى ، وأوسمان لابد أنها كلمة عثمان ، بالانجليزى . . أو عثمان لابد أنها كلمة أوسمان بالعربى . . ولابد ان عيلتى وعيلته من اصل واحد . . ولابد أن جدى رحمه الله جاء مع الغزو الانجليزى الذى حدث ايام المماليك ثم اعجبه الاهرام وابو الهول فاستقر به المقام فى المنوفية أو ربما ـ من يدرى ـ جدى يرحمه الله ربطوه فى الحبال وجرجروه على السلطة . . ثم هرب الى لندن وتبرطن أى أصبح بريطانيا وغير اسم عثمان الى أوسمان . . المهم أننا قرايب واولاد عمومة وسيأخذنى بالحضن وسآخذه بالرأس .
ولفعت هالة على أم رأسى وذهبت الى شارع هارلى ودخلت على سكرتيرة أوسمان كلارك . ولم تكن سكرتيرة واحدة . . كانوا عشر سكرتيرات جميلات مهندمات ولهن رئيسة عجوزة شعرها شايب ولها شارب لولا الملامة لوقف عليه الاسد البريطانى . . اذ ليس فى بريطانيا صقور .
ووقفت ملطوعا امام الست العجوزة حتى تكرمت وخاطبتنى ، فقلت لها على الفور كأننى مدفع رشاش انطلق فجأة :
ـ انا ياسيدتى محمود أوسمان السعدنى حضرت خصيصا من منوف لزيارة ابن عمنا عميد عائلتنا المستر أوسمان . .
ولكن المرأة العجوزة الارشانة نظرت الى الهيئة فلم تعجبها . . ان مستر أوسمان ابيض على أحمر . . وله لغد اللهم صلى على اجدع نبى . . ومن عائلة

لابد كانت تأكل وتشرب منذ مائة عام . . والهيئة التى انا عليها لاتدل على اننى من عائلة اطلاقا ، واذا كان الامر ولابد . . فلابد اننى من عائلة لم تأكل ولم تشرب منذ مائة عام . . وهزت المرأة رأسها أسفا وقالت : ليس هنا المكان الذى تبحث عنه . . لابد أنك أخطأت العنوان .

والانجليز ناس ساخرون للغاية ولكنهم مؤدبون . يجرحوك دون اسالة دم ، ويهبشوك دون أن يتركوا فى اللحم أثرا . . وادركت ان المرأة المهروشة تلمح لى اننى ربما ابحث عن مستشفى الكلب . فقررت أن أفحمها والجمها ، فكشفت لها عن وجه هالة !

وهالة أيها الناس بيضاء كاللبن الحليب . . شعرها احمر فى لون الحنة . . مسمسمة تؤكد بالدليل القاطع اننى ايضا أوسهان ابن كلارك ابن عبدالفضيل . . وتأوهت السكرتيرة العجوزة وقالت . . يالها من مسكينة . . لماذا لاتتركها تلعب وتقفز ؟ لماذا انت حاملها هكذا كأنها قفة مشحونة فى قطار الصعيد ؟ . وقلت لها عن السبب الاغبر وأننى جئت بها لعلاجها عند قريبها المستر أوسهان واننى معى خطابات توصية من أولاد عمه وبنات خالته بهانة ومبغددة وأم الخير . .

وابتسمت السكرتيرة العجوزة وقالت : من أجل ذلك سأجعلك تراه فى شهر نوفمبر !!

تصور . . فى شهر نوفمبر ! ونحن فى شهر أغسطس والعبد لله انظف من الصينى بعد غسيله ! وتوسلت الى الست المهبوشة أن ترحم شيخوختى وترحم غلبوبتى وتسمح لى بالدخول على مستر أوسهان كلارك . . ولكن ابدأ رأسنها وألف سيف لا أدخل عليه ولا أراه الا فى نوفمبر . . ولم اجد بدا من البكاء فبكيت ! وما أغرب منظرى وانا ابكى كمتسول على باب السيدة . . واخيرا رق قلب الست . . رضيت علينا وقالت : اذن ستدخل عليه بعد عشرة أيام . .

وعصلجت هنا فلم تتزحزح . . ولما اكتشفت انه لا جدوى من البكاء توقفت دموعى عن الجريان وحملت هالة وانصرفت . .

وعشرة أيام طويلة وأنا قابع كأسد قصر النيل على باب لوكاندة الملكة وثلاث جنيهات فى كل يوم مع الافطار ، ومنظرها لا يختلف كثيرا عن لوكاندة الباب الاخضر فى سيدنا الحسين . . وعندما حان الموعد حملت هالة الى شارع هارلى الى عمنا الكبير اوسهان كلارك . ونظر اوسهان كلارك فى ساق هالة وقرأ التقارير بسرعة وقال كأنه يخطب فى جماهير الناخبين :

هذه عملية دقيقة يمكن ان يجريها اى جراح مختص بجراحة شلل الاطفال وانا ارشح لك المستر بروكس ، سأتصل به حالا . .

مستر بروكس مين ياعم .. أنا قادم من منوف لك أنت شخصيا .. وانا دخت دوخة الفرخة المدبوحة لكى اراك انت سبحانك .. فلماذا كانت اذن كل هذه الشحططة وكل هذه البهدلة ؟ الله يرضى عليك ياعمى تعالج البنت الغلبانة وتسر خاطرى الهى يجبر بخاطرك ياشيخ ..!

ولكن كلمات المستر اوسمان كلارك كالتوراة ، وأحكامه كالقضاء والقدر .. ورفع سماعة التليفون وطلب المستر بروكس ورطن معه بالانجليزى عشر دقائق كاملة ، ثم دق جرسا امامه وجاءت السكرتيرة العجوز تحجل كالغراب .. وقال لها اصحبى الجنتلمان حتى الباب .. وحددى له موعدا غدا مع المستر بروكس .. ولكنى لم اتزحزح من مكانى .. اصبحت مثل تمثال فى متحف الشمع ! وقال الرجل وهو يربت بيده على ظهر هالة :

المستر بروكس يابنى هو اقدر من يجرى هذه العملية .. فهو طبيب مختص .. وهو سيجريها لاننى طلبت اليه ذلك .. ولو انك ذهبت اليه وحدك لما سمح لك بالدخول عليه قبل عشرة اسابيع .. ثم هناك سبب آخر يجعله اقدر منى على اجراء العملية .. سبب وجيه هو ان المستر بروكس مشلول هو الآخر مثل هالة !

عصرت الكلمة الاخيرة قلبى وشدت اذنى .. ودفعتنى دفعا نحو الباب الى شارع هارلى .. وعدت اليه ـ الى الشارع ـ بعد ذلك بأيام .. فى سيارة طبيب مصرى عظيم وكريم وخادم عام لجميع المصريين المرضانين فى لندن .. الدكتور صلاح خاطر .. ومعنا فى السيارة الزميل مفيد فوزى ، وطالب مصرى يدرس الدكتوراه فى جامعة لندن .. ويعمل بعد الظهر فى مكتب المستشار الصحفى واسمه محمود حسين . شاب فى الاربعين من عمره ولكن يستحق السلامة .. وانا مدين لهذا الشاب بجميله الذى يطوق عنقى الى مالا نهاية ..

ودخلنا على المستر بروكس .. فى الثانية والاربعين من عمره ، وسيم مشدود القامة فى غير غرور .. ممتلىء فى غير كروش .. وعندما تقدم يصافحنا لاحظت انه اعرج عرج خفيف ولكن ملحوظ ، عرج فخم من هذا النوع الذى يضفى على صاحبه مهابة ويسبغ عليه لونا من الوان العظمة ويفرض عليك نحو صاحبه نوعا من انواع الاحترام !

وقال بروكس وهو يفحص هالة : سأقوم باجراء العملية بعد اسبوع وستبقى فى الجبس لمدة شهر .. وبعد ذلك سوف نقرر ماذا ينبغى علينا عمله ..

كان المستر بروكس يتحدث بالانجليزية واصطلاحات طبية فنية والعبد لله واقف يسمع كالحمار الحصاوى . ولاحظ الدكتور صلاح خاطر فتولى اعمال الترجمة . . وأشهد انه كان مدهشا كمترجم وانه كان فى حاجة هو الآخر الى ترجمان !

- اسمع يا سعدنى - هكذا قال الدكتور خاطر - البنت هالة آوز (عاوز) اكراكتيشن أوبر يشين عشان هيه عندها بوليو سنس فايف ييرز . ولازم جوتو هوسبتال فور ون مونث تو دو را جريت استفارونس ان ذا هايددروب أو ذا ويفندالز بوبزن . . مفهوم كلام دى يا سعدنى !

وقلت : مفهوم خالص والله العظيم يا دكتور صلاح . . ولكن متى تكون العملية واين ستكون !

وضرب الدكتور صلاح كفا بكف وقال وهو يصرخ : ايه دى . . انا قلتلك أن هالة آوز اكراكتيشن أو بريشن . . ونفس الاسطوانة عاد يكررها الدكتور صلاح من جديد .

مهم جدا أن أقول أن هالة دخلت المستشفى بعد أسبوع ، مستشفيات نظيفة صحيح ولكن فى أسعار فندق هيلتون ، مستشفى رويال ناشيونال اورتبيدك هوسبتال لها من الخارج مظهر مستشفى أبو الريش . . ولكن من الداخل . . الحقنى ! وست حلوة من ايرلندا كل يوم تفوت على هالة فى السرير تسألها ماذا تريد ان تأكل فى اليوم التالى . . وكما تطلب هالة يحضر .

ولكن الاعجب والاغرب والاهيب ان كل مرضى المستشفى يحدث معهم نفس الشيء . وفى المستشفى عشرة مرضى بفلوس مثل هالة . . والباقى وعددهم ٥٠٠ بالمجان . . ولكن لافرق بين المجان او ابو فلوس الا شيء واحد . الذى يدفع نقودا له الاولوية وحجرة خاصة . والذى يتعالج بالبلوشى ينتظر فى الدور وينام مع آخرين فى عنبر أو فى حجرة . . وماعدا ذلك فكل شيء رهن أمره ، وكل شيء رهن اشارته . . وكل طلباته مجابة . . وكل نزواته مستجابة . . حتى حب الممرضات والسسترات والعيانات اللاتى فى عنبر الحريم !

الممرضات ايه ؟ اجارك الله . . بنات أجمل من الست مارلين مونرو ، واشيك من الامبراطورة ثريا ، وأرقص من سامية جمال . . أى كده وحياة دا اليوم العظيم . . ولكن لا مياعة ولا قلاطة . والواحدة فيهم تشيل فضلات المريض كما تشيل زجاجة البارفان ، وكلهن سواء ، فى الجد ولا عنتر بن شداد ، وفى الهزار ولا بريجيت باردو . . ولكن هناك وقت للجد ووقت للهزار .

والعيان ياميت حلاوة على لبسه . . كأنه بيه نايم فى سراية وخارج فى ملابس النوم والروب يستنشق عبير الزهر فى حديقة قصره .

تذكرت وانا اطوف بعنابر مستشفى الرويال ناشونال اورتُبيدك هوسبتال حادثة وقعت لى ذات مرة منذ سنوات عندما كنت داخلا احدى المدن فى الوجه القبلى قاصدا مكانا فضللت طريقى ثم لمحت مستشفى جربانة اجرب من سجن المديرية فذهبت اليها استعلم وأستفهم على رأى عمنا هجرس ، وعلى الباب وجدت عيانا فى ملابس متشردين . . ابله لا يكاد يعى ما حوله ، جربان نازل حت فى جتة سيادته . . وسألته وأجابنى وعندما هممت بالانصراف قال العيان الجربان لسيادتى :

- افندى . . انت يافندى . .

- نعمين . .

هات جرش صاغ . .

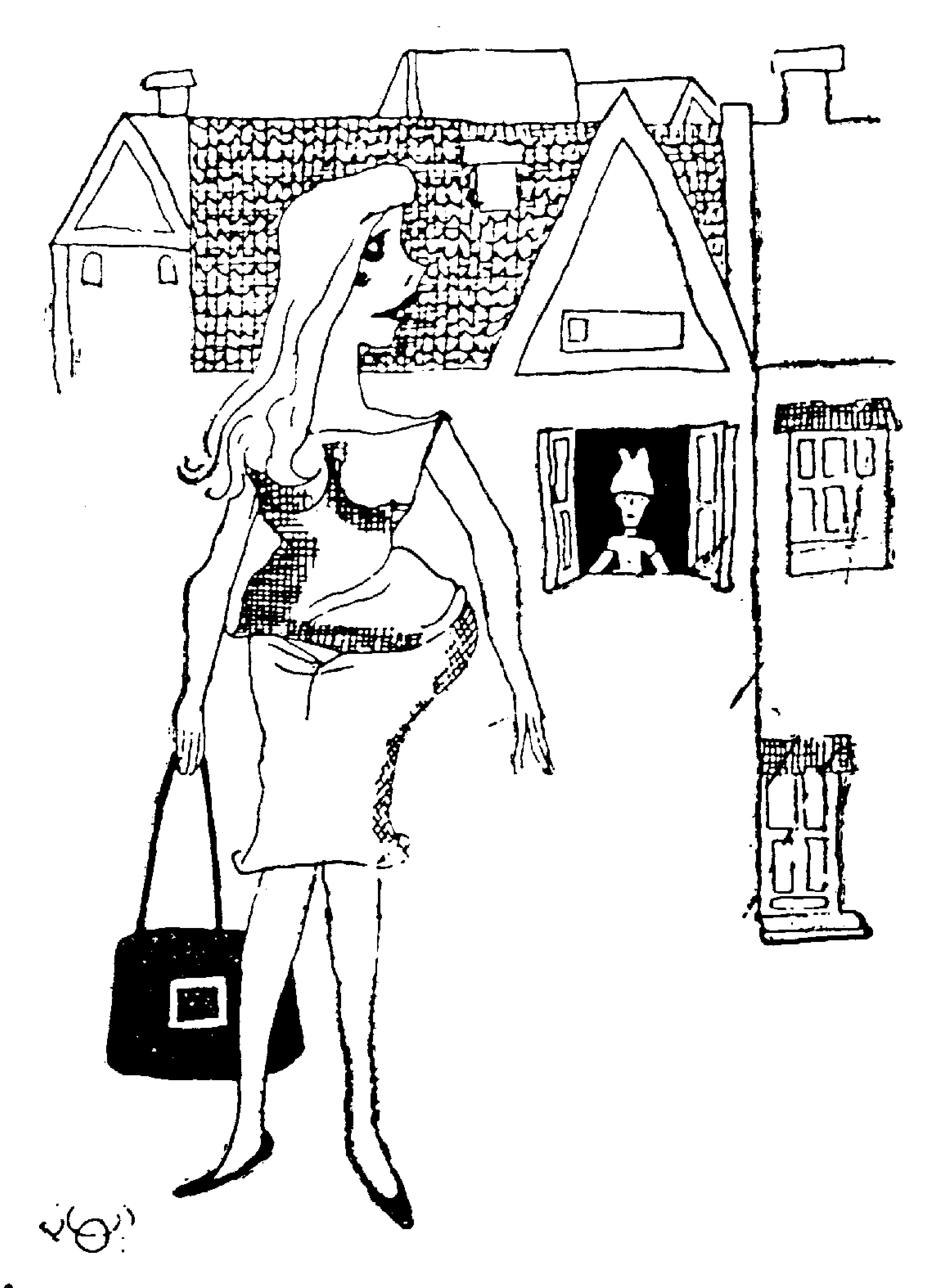
- ليه ؟

- اجيب عيش وطعمية . .

وما أحلى وما أوسع حديث المستشفيات فى لندن . . مستشفيات ولكن متاحف وصالونات ومعابد . . كل شىء لامع ونظيف وآلى يتحرك وحده . . وكل شىء يوحى بالثقة ويوحى بالشفاء . . ولكن آخ من سعر المستشفيات للغرباء أمثالى . . فقد دفعت ٦٠ جنيها فى كل أسبوع لحالة - ٦٠ جنيه استرلينى حار ونار فى جتة ابو هم الله يرحمه مطرح ماراح . . فقد طارت فلوسنا هناك ياجدعان ونضبت مواردنا تماما . . ولكن الحديث لم ينضب بعد .



حكاية البنت المحمل



وآه من مدينة مثل لندن اذا لم يكن لك فيها صديق ! فى بلد مثل القاهرة على رأى احسان عبدالقدوس . . لاشيء يهم . . لان البساط هنا احمدى ، والحياة تمضى سبهللة ، والوقت هنا متسع للرغى والثرثرة !

والليل هنا ساحر وجميل ، والنجوم تلمع فى السماء والنسيم بليل وعليل على رأى مدرس الانشاء ، وفى قهوة تستطيع ان تجلس ، وواحد شاى بقرش صاغ تستطيع أن تطلب ، ورجليك على الرصيف تستطيع ان تدلدل ، وسيجارة بلمونت آخر مزاج تستطيع ان تولع ، ثم تتلفت يمنة ، وتتلفت يسرة وتختار أى جدع يجلس على الرصيف مثلك ، وتسأله عن الساعة ، وقد لاتكون فى حاجة الى معرفة الوقت ، فانت لست على سفر ، وليس وراءك مشوار ، ولا انت طالع جلسة ، ولاعندك قضية على رأى عمر الجيزاوى . . اتفضل شاى . . انا عندى قضية . . وكأن القضية هى الشيء الوحيد الذى يعطل الانسان العاقل الرشيد عن شرب الشاى !

أنت ببساطة تستطيع أن تسأل أى جالس جوارك عن الساعة ، وبعد ساعة ستصير بينكما صداقة ولاصداقة بولس بالمسيح ، وستصبح بينكما عشرة . . ولاعشرة العمر . . وستعرف عنه كل شيء ، وسيعرف عنك كل شيء . وتفترقان على دموع ، والى غير عودة !

ذلك انك عندما تسأله عن الساعة سينظر اليك نظرة فاحصة ماحصة ، وسيقول لك وهو يبتسم . . عاوزها كام ؟ ثم يجيب على سؤالك فى النهاية بأنها التاسعة وعشر دقائق ونص ثانية ، ثم لن يسكت بعد ذلك . لابد سيعلق على الساعة ، فلقد ركب الساعة عفريت ، وكل شيء فى الحياة ركبة عفريت .

القطارات أصبحت سريعة ، والناس يمدون حين يمشون ، والجنيه تفكه فلا تجده بعد ربع ساعة ، والولد يولد اليوم ويدخن غدا ، ويعشق رقاصة بعد كام يوم ، والسبب هو الكيماوى ، حتى زوجته فسدت هى الاخرى بسبب الكيماوى ، وقبل الكيماوى كانت الزوجات عال العال ، وكن مطيعات مهذبات مهندمات ، راضيات بالكثير صابرات على القليل .

ولكن آه من الكيماوى ويوم ان عرف الناس الكيماوى ، والله يرحم جده سعفان الذى كان من أعيان تفاهنة العزب ، وسيحكى لك عندئذ عن بلده وعن شجرة الجميز التى عند السواقى ، والفدان الذى كان يملكه من طرح البحر ثم عاد البحر وغدر وأكله بعد ذلك . وسيحكى لك كل شىء عن شجرة العيلة . .

من أول الست أمه الى آخر ألست سته وست العالم دا كله ، ستنا حوا مرات أبونا الكبير آدم ، وسيعزم عليك بسيجارة وستعزم عليه بتعميرة ، وقد يقبض عليكما البوليس ، ويعثر على الحشيش معكما ، وتدخلان السجن معا ، وقد تموتان هناك معا ، بعد عمر طويل . .

وهكذا ـ غالبا ـ تنتهى .

أما فى لندن ، فاه وألف آه ، واذا كنت فيها بلا صديق ، فستجلس عندئذ فى القهوة وحيدا كالغراب النوحى ، وستشرب الشاى وحدك كأنك مسجون انفرادى ، وستذهب الى السينما وحدك ، وتتسكع فى الطريق وحدك ، فكل اهل لندن افراد فى عائلة الدوغرى وعيلة نعمان عاشور الشهيرة .

وقد تتشجع وتتمنجع وتسأل واحد شحط بجوارك عن الساعة ، وعندئذ سيقول بسرعة وفجأة ان الساعة سبعة ، يقولها ويسكت ، كأنه مسدس انطلق ، واللى كان أهو كان ، بمبة فرقعت وكفى ، مصيبة وقعت والسلام ، كأنه الساعة الناطقة فى التليفون ، وعندما تسأل الساعة الناطقة فى التليفون عن الساعة ستجيبك فورا ثم تسكت ، فلا شىء عندها الا الجواب على سؤالك ، لن تسألك الساعة الناطقة طبعا عن صحة سيادتك ولا عن صحة عيالك ، ولن تهتم أبدا بمنظر أسنانك ولابسعر حذائك ! وهكذا الانجليزى ابن الانجليزى فى لندرة ، يذهب وحده الى المكتب ، والى المصنع ، ثم يجلس يشرب البيرة فى البوب ، ثم يسحب معه امرأة ويذهب الى البيت ، يتكلمان ويتناقشان ويتباوسان . . ثم كان الله بالسر عليم !

ليس لرجل فى لندن صديق الا زوجة أو عشيقة ، ثم كان الله يحب المحسنين . .

ليست هناك شلل الرجال ، والشلة تسهر كل ليلة عند واحد ، وتضحك حتى الصباح ، وتمزح حتى مطلع الفجر ! وليس هناك أم كلثوم ولاحتى عبدالوهاب ، الاغانى خاطفة وعاصفة وعلى ودنه ، والناس لا تجتمع الا فى المترو وفى ملاعب الكورة . . وملاعب الكورة هناك فن وعلم ، وليست حسب التساهيل وليست بالنيات . . ولاعب الكورة هناك يعيش ويموت داخل ناديه ، ففى النادى يأكل ويشرب ، وفى النادى يسهر ، وفى النادى يحب ، وهو بين الشرب ، والسهر والحب يتمرن ويتدرب ويقبض فلوسا على قفا من يشيل ، وله

حصة من الارباح .. ولكن نوادينا هنا لاتدفع ارباحا لاحد ولا للعمال ، والسبب أن النوادى هنا اخترعت حكاية غريبة .. انها ليست مؤسسات ، وليست شركات وليست قطاع عام ، وليست قطاع خاص ، ولكنها نوادى لعب ، واللعب على اشكال وعلى ألوان ، لعب الكورة ، ولعب ورق ، ومن معه الكورة يخسر دائما ، ومن معه الآس يربح على الدوام والكلام بالملفوف ، ولكن مفهوم وواضح وكل لبيب بالاشارة يفهم ، كما فهمت انا الحياة فى لندن بعد ثلاثة أيام ! وفهمت انه آه وألف آه من لندن بلا أصدقاء ، لذلك كان لابد من العثور على أصدقاء ، والحمد لله عثرت ، بنت ايرلندية طويلة فى طول عمود السوارى ، ملظلظة كالمحمل ، ولذلك أطلقت عليها اسم المحمل ، وأصحاب هذا الوزن من النساء فى لندن غلابة غلب آخر ملوك المسلمين فى اسبانيا .. فهى ليست على الذوق الانجليزى المألوف ، حيث المرأة المسلوعة هى الفائزة والمرأة المعرقبة هى الرابحة باذن الله ، والمرأة المكرونة هى المطلوبة وهى المرغوبة على سنة الله أو على سنة الشيطان ! لذلك أيضا تظل الواحدة المحمل من دول منزوية ومنطوية حتى يطب لندن راجل غشيم مثل حالى شرقى يحب البلوظة مثل حالى ، ريفى يعشق المراتب مثل حضرتنا ، فتعشقه وتتعلق برقبته وتمضى وراءه الى آخر الارض !

من هنا كانت الحكاية على رأى عبدالحليم . عرفتنى البنت المحمل وأحبتنى وأصبحت انا وهى مسخة فى شوارع لندن ، أنا المبروم كأننى عود قصب ممصوص ، وهى المحمل التى تمشى تتبختر وتتفختر ، وهز يا وز ، ويا أرض احفظى ما عليكى ، امرأة ولكن من طراز ١٩٠٠ !! وكانت ساخرة فهى من ايرلندا ، وكل أهل ايرلندا ساخرون ، برناردشو الشهير كان من ايرلندا ، وواحد كاتب آخر اسمه سيريل كونولى أشهر نقاد انجلترا وصاحب كتاب حديقة الغرب وأطول لسان وأسلط لسان بعد العبد لله ، وصاحب مدرسة النقد الشخصى ، وهو النقد الذى يصدر بصدق من أعماق وأمعاء الناقد نفسه ، وليس من النظريات والقواعد والكتب الاكاديمية !

والبنت المحمل فنانة وناقدة ولكنها للاسف لاتجيد الكتابة ولكنها تجيد الكلام ، ومع الكلام تحفظ قفة أمثال شعبية . وسهرنا معا فى حدائق هايدبارك ، وفى شارع انفرناس تراس ، وفى المقاهى الرخيصة التى تحت الارض ، واكتشفت أن البنت المحمل سيدة بمعنى الكلمة وأنها تستحق المحبة والاحترام . وكانت تكره الانجليز من اعماقها ، الرجل الانجليزى فى نظرها امرأة ، وهو لايجيد مهنة الحب ولكنه يجذب المرأة من يدها الى الفراش كأنه فحل هولندى ، مع فارق بسيط هو ان الرجل الانجليزى ليس فحلا على الاطلاق لهذا

السبب تطلق نساء انجلترا على رجال انجلترا لقب الزجاجات الساخنة ، لان مهمتهم الحقيقية هي تدفئة الفراش في ليالي الشتاء ، أما الحب الحقيقي فليس له الا منبع واحد هو أبناء المستعمرات ، أو التي كانت مستعمرات فيها مضى من الزمان .

ولقد قالت لى المحمل ذات ليلة ان الذين فتح الجيش الانجليزى العالم من أجلهم هم أصحاب رءوس الاموال والنساء . فلقد كان الرأسماليون فى حاجة الى أسواق جديدة ، وكانت النساء فى حاجة الى رجال من طراز آخر !

ومن عجائب الاجبار فى بلاد الامطار أن الولد الانجليزى اذا سار فى الطريق مع بنت انجليزية فانه يحمل لها الشنطة ويحمل لها البالطو ويحمل عنها الشمسية ، وهى تدفع له حساب التاكسى وتدفع له تذكرة السينما وتدفع عنه فاتورة الحساب !

ولم تكن المحمل من هذا الطراز من النساء ، كانت تحب الرجل الحمش الذى يشخط ويضرب بالاقلام على الخدود ، ويضرب بالحذاء على النافوخ ! ولانها كانت تعانى من تجاهل الشبان الانجليز لها ، ولانها كانت موضع احتقارهم وعدم أهتمامهم ، فقد أصيبت بعقدة احتقار عامة لكل الانجليز ، ولأنها كانت منهم فلقد كان لديها أسباب الاحتقار وكانت تملك مبرراته ، ولم يقدر لها أن تحب رجلا من القارة المحظوظة أوروبا الا مرة واحدة ، عندما وقع فى هواها ولد من أيرلندا . شاب فى مثل عمرها ، وسيم كأنه يوسف الصديق ، حمش كأنه من مركز طما ! وشعرت البنت المحمل بالطمأنينة لاول مرة ، وأحست بالدفء ووهبت نفسها للولد الذى أحبته حتى العبادة ، وكانت لاتزال عذراء حتى اللحظة التى وهبت فيها نفسها للولد الايرلندى ، كانت هذه وحدها بدعة من بدع البنت ، فكيف تستطيع فتاة فى لندن أن تحتفظ بطهارة جسمها وعمرها ربع قرن !

ومضت الحياة هنية بالبنت الايرلندية بنت كورك والولد بلدياتها ولكن الحظ الاسود تدخل فجأة فأفسد الامر ، فقد كان الولد يركب طيارة من دبلن الى لندن ، وكانت ليلة عاصفة ومطيرة ، وانقلبت الطائرة فى الريف البريطانى واحترقت واندفن الولد والامل ، وعادت البنت من جديد الى الانطواء والانزواء ، تدور فى دوامة بلا نهاية وكأنك ياحمل لا حبيت ولا اتهنيت .

ولكن البنت عادت بعد سنة تستقبل الحياة من جديد ، فلقد طرق قلبها ذات يوم واحد جديد من بلاد الشمس والموسيقى والغناء والنشل والنصب العظيم . كان الولد اسمرانى معجبانى من نابولى ، وكان حاميا أحمى من سكين الجزار ، سريع الحب كأنه مدفع سريع الطلقات ، سريع النسيان ايضا لم يلبث ان هجر البنت واختفى فى لندن الواسعة .

ثم عرفت ولدا من اليونان كان يعلم انها سمينة وانها معقدة فأستغل الولد اليونانى ضعفها ولعب بها الكورة ، وشواها على جمر النار حتى استوت .
وعندما هجرها اليونانى اقسمت أن تهجر كل الرجال ودفنت نفسها فى الكتب تقرأ وتتثقف وصاحبت بنت ايرلندية فلاحة كانت هى كل حياتها وكل دنياها . وأحيانا كانت تغضب منها فتثور عليها وتسبها وتلعن سنسفيل أبوها . ثم بعد لحظة تهدأ فتعتذر لها ، وكانت بعد كل خناقة من هذا النوع تردد مثلا انجليزيا معروفا « انك تستطيع أن تنزع البنت من الريف ولكنك لا تستطيع أن تنزع الريف من البنت ! »
وعندما تعرفت على المحمل جلست معها كأى فلاح من « سند ببيط » أشكو لها هواى وأبثها غرامى وكيف أننى منذ رأيتها انقلب حالى الى رجل مشعوط ملعبط من الحب العظيم .
وضحكت البنت الساخرة الساحرة وقالت وهى لاتزال تضحك : انك لاتستطيع أن تعبر النهر على عجلة » . ثم القت على مسامع العبد لله محاضرة فى فن الحب والهوى والغرام ، وقالت ان الحب مثل الورد لا ينمو فى لحظة . ان الحب يحتاج الى أرض والى وقت والى ماء والى جناينى يتعهده ويرعاه ثم يقطفه فى النهاية .
وكسفتنى وهزأتنى الله يلعن أبوها على اللى جابوها ، فلقد كنت أحبها فعلا ومن أول نظرة ، نظريتها صحيحة فعلا ونظريتى أنا الآخر صحيحة . ففى السجن يحب المسجون سجانه ، فهو وحده عالمه ودنياه ، وفى المستشفى يحب المريض التمرجية فهى صلة الوصل بينه وبين العالم . وفى لندن يحب الموكوس البنت الايرلندية ، فليس هناك غيرها ، وليس له أمل فى غيرها ، ولكن لانه لايصح الا الصحيح ، فقد ثبت ان نظريتها هى الصحيحة ونظرية العبد لله فاسدة ، فعندما تحولت الى غيرها تحول حبى لها الى صداقة ، ثم اصيبت الصداقة بالفتور فتحولت الى معرفة .
ولقد عرفت بعد ذلك كثيرا من البنات والنساء فى لندن ، ولكن اغرب هؤلاء جميعا كانت بنت انجليزية فى ثياب ولد ، بنطلون وقميص وكرافتة ، وفى يدها مطوة كأنها ولد شقى من عيال اسكندرية . وكانت البنت صريحة ومتبجحة وقالت لى بمنتهى الصراحة : اننى لا أحب الرجال . . انى احب النساء ، ولى بينهن اكثر من صديقة ودعتنى الى نادى روبين هود فى البوابة القديمة ولم يكن فى « روبين هود » الا نساء ، بعضهن فى ثياب رجل ، ومع كل راجل منهن مطوة وبنت زى التفاحة حمار وحلاوة !

وفى هذا الجو الغريب تدور الموسيقى ويدور الرقص ومع الرقص يدور العناق والاحضان ، وكلهن بنات فى بنات ولكن الملابس تختلف !

وعلمت ان « روبين هود » ليس وحده فى لندن ، ففى كل حى من أحياء المدينة يوجد « روبين هود » . الحياة التى تبدو هناك غنية وثرية فقدت طعمها الرتيب . فانقلب الناس الى مجانين يبحثون عن طعم جديد ! هكذا علنى وعلى البهلى وعلى عينك ياتاجر يمارس أهل لندن كل أنواع الشذوذ ، مدينة بومبى جديدة ولكن لم يداهمها الزلزال بعد . ولكن من قال لك أن الزلزال لم يداهمنا بعد ؟ هكذا قالت البنت المسترجلة للعبد لله وأنا واقف أمامها كالعبيط الريفى ذاهلا عما يدور حولى داخل « الروبين هود »!

لقد كنا امة عظيمة فى مطلع القرن وهانحن الآن فى منتصف القرن أمة على قدها ، وكانت لندن كعبة رجال الفكر والفن والثقافة فأصبحت لندن مدينة مصدرة ، الفنان الذى يريد أن يسترزق يخطف رجله الى هوليود ، والكاتب الذى يريد أن يشتهر يعبر المحيط الى نيويورك والشاعر الذى يريد أن ينشر شعره يعبر المانش الى باريس !

والسود الذين كنا نحكمهم أصبحوا الآن سفراء فى لندن ، وعلى سياراتهم الفارهة تخفق اعلام الحرية . . اعلام بلادهم ، وفى بلادنا عاطلون يبحثون عن عمل . وعندنا ثروات لا نستطيع توظيفها ، فقد أغلقت اكثر الاسواق فى وجوهنا . .

لقد جاء الزلزال يا صديقى وعلينا أن ننسى ، وليس فى العالم كله مكان أصلح من الروبين هود لندفن احزاننا وننسى همومنا .

غريبة وعجيبة هذه المدينة لندن ، دولة رأسمالية لها بعض السلوك الاشتراكى ، امبراطورية عظيمة ودولة متدهورة . فعلى أرضها عساكر أجانب وقواعد عسكرية . شديدة التفسخ شديدة التعلق بمكارم الاخلاق الحميدة ، عساكرها فتحوا العالم يوما ما ، واليوم نصف رجالها مخنثون ونصف نسائها مسترجلات ، ونصف عيالها أشقياء وحرامية ، بعضهم يمارس عمليات الشقاوة فى لندن ، وبعضهم يمارس عمليات الخطف فيما تبقى من مستعمرات ! ولا أحد يدرى الى أين ، ولا أحد يدرك الحل .

وفى البلد حزبان كبيران ليس بينهما فروق ملحوظة كأنهما شلة من العيال يلعبون لعبة عسكر وحرامية ، ولمن يريد ان يحتج ان يذهب الى هايد بارك ويهوهو ولن يسمع هوهوته أحد ، ولن يهتم بها انسان !

وكل واحد فى لندن على كيفه صحيح ، ولكن فى الحدود المرسومة ، تستطيع ان ترتدى زى رجل او زى امرأة ، تستطيع أن تمارس الشذوذ او تمارس السلوك المستقيم ولكنك لا تستطيع أن تغير طوبة فى نظام المدينة .

ولقد شاهدت فى لندن ناديا خاصا للرجال الذين يرتدون آخر أزياء المودة ، وجزم كعب عالى . وعلى الشفاه أحمر ولا حمار القوطة ، وفى الخدود أحمر ولاحمار البطيخ ، وفى السيقان شعر بارز طويل ولا أسلاك شائكة مضروبة على بعض المعسكرات ، والاصوات خشنة ورهيبة .

ومن بين الجميع تقدم منى رجل فى السبعين من عمره ، كان صديقا فى يوم ما للراحل اغاخان ، وفاروق ملكنا الزين أبو وردة على الخدين . وكان الرجل العجوز الذى لايختشى على عرضه يرتدى فستان جرسية وجزمة خمسة سنتى . ويلف رأسه الشايب الاصلع باشارب فسدقى . وفى يده شنطة شمواه ، وقال انه يقضى شتاءه فى الريفيرا وصيفه على ضفاف بحيرة ليمان ، وهو انجليزى صحيح ولكنه لايحب لندن ، ويكره الانجليز اكثر من كراهيته للشيطان وله حصة فى شركة ملاحة جاء خصيصا ليبيعها ويعود الى حال سبيله .

ولقد صادقت الرجل وصدقته ، ورأيته بعد ذلك فى الشوارع التى تخترق قلب المدينة ، وفى المقاهى الرخيصة المنتشرة فى الضواحى ، وجالسته وجالسنى ، وبدا لى رجلا ملو هدومه ، كان عضوا سابقا فى حزب الاحرار ، وكان أدميرالا فى البحرية ، ونزل الاسكندرية فى عام ١٩٣٠ على ظهر مدمرة تطلق مدافع فى الهواء ، فترتعش لها ركب الذى يسكن قصر رأس التين ، وزار موانى الهند ونشر اعلامه فى مياهها الاقليمية ، ووقف فى عرض البحر يستقبل مهراجاتها ومهراناتها ، ثم دخل الحرب العالمية الثانية ، وقاد اسطول مراكب الصيد الذى فر بالجيش الانجليزى الهارب من دنكرك . ثم اعتزل الخدمة بعد الحرب ، وماتت زوجته وابنته الوحيدة فهجر انجلترا وصاع ، وتدحرج الادميرال السابق فى نفس الوقت الذى تدحرجت فيه الامبراطورية السابقة ، وظلا يتدحرجان معا حتى وصلا الى القاع . انتهت بريطانيا من فيكتوريا الى كريستين كيللر وانتهى الادميرال الى أدمره ، وخلع ملابس الرجال وارتدى زى النساء وخطط حواجبه وشفايفه ، وراح يتقصع ويتنطع عله يجد راغبا بين الرجال !

ولقد اكتشفت الرجل بعد ذلك ، اتضح للعبد لله انه نصاب . صحيح انه كان ادميرالا ، وصحيح انه هجر لندن فترة طويلة الى الريفيرا والكوت دازور يلعب القمار ويلعب الحلبسة ، ثم عاد الى لندن وقد تغير الاثنان ، تغير الرجل وتغيرت لندن ، عاد نصابا وعاد فى ملابس امرأة ، وتذكرت كلمة لكاتب الغلابا تشارلز ديكنز عندما عاد الى لندن بعد غيبة طويلة ، فاكتشف أن المدينة تغيرت وانه هو الآخر تغير ، فهتف الحزين المسكين تشارلز ديكنز : « من أنذا الذى يعيب عن المدينة لأنها تغيرت وقد عدت اليها أنا نفسى وقد غيرت منى الأيام » .

ولقد حاول الرجل الادميرال أن ينصب على العبد لله ، سحب معه رجلا صديقه فى الثمانين من عمره ، يونانيا كان فى البداية ثم تجلنز . . أى أصبح انجليزيا ، وقال الرجل اليونانى المتجلنز انه يبيع القماش الفاخر عرض وعرضين وعلى كل لون بخمسة وعشرين جنيها للحتة . وبعد أسبوع اكتشفت ان الحتة التى يعرضها للبيع تساوى سبعة جنيهات فى أحسن دكان فى لندن . . ويومها طفشت من الرجل الادميرالى . . والا بلاش أقول راجل أحسن يزعل . . طفشت من الرجل الذى بدأ حياته أدميرالا وانتهى فى آخر حياته أدمره !

ولقد عرفت غير الادميرال عشرات آخرين ، ولكن يبقى فى النفس وفى الذاكرة صورة الرجل الاسود الوحش الطيب القلب الذى هو من جزيرة ترينداد . . فلم يكن هناك أصدق تعبيرا عن حياة لندن من حياة العكنف ، وهو ليس عكنفا فقط ولكنه رجل هبفر ومخلوق شطلاوى آخر مزاج .

ولكن لماذا يحج كل الناس حتى هذه اللحظة الى لندن ؟

لماذا يصل اليها الناس وعلى كل ضامر ومن كل فج عميق ؟

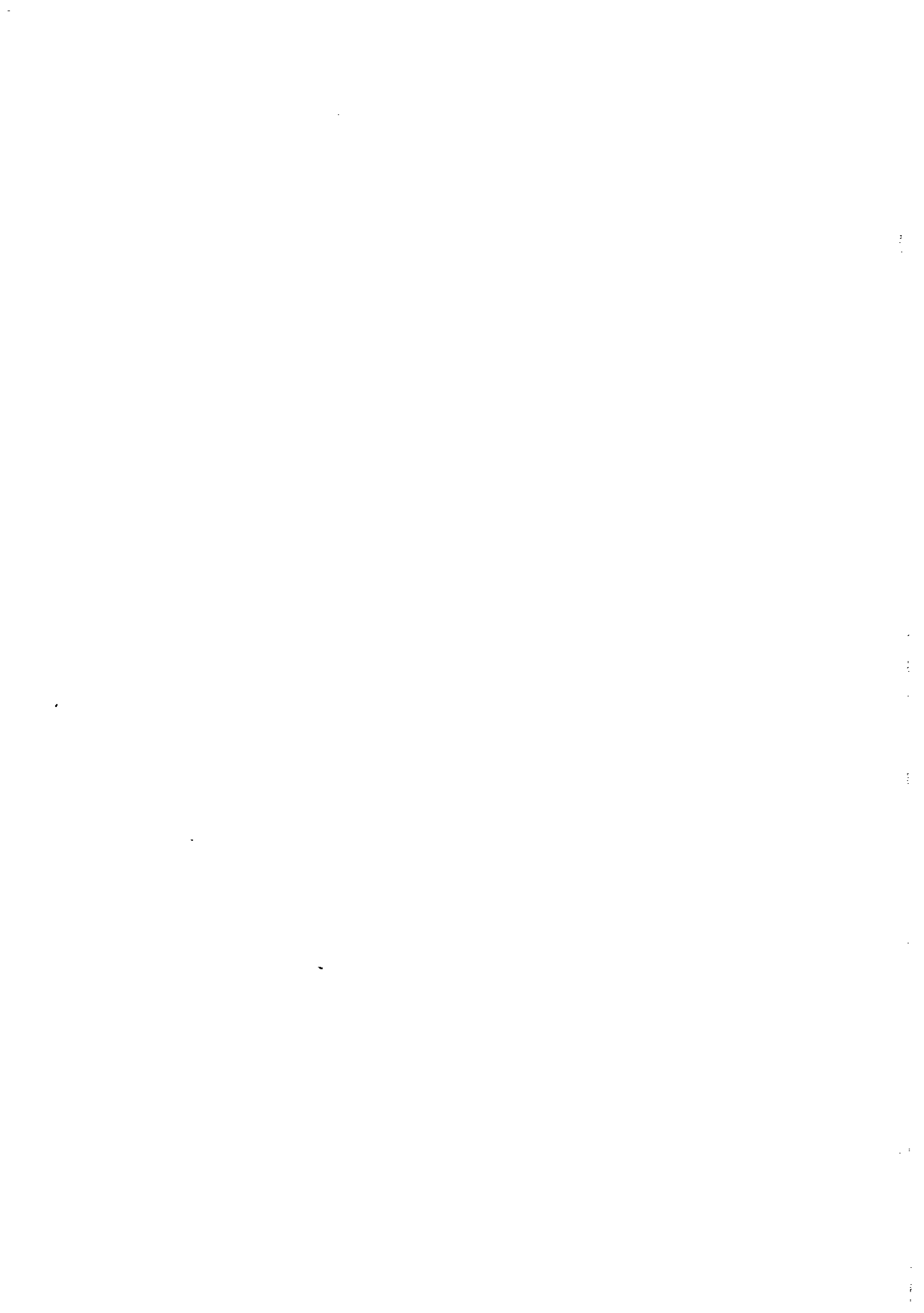
لماذا ؟ مع ان سكان لندن يعيشون كل عائلة فى حجرة ، ويستعملون مراحيض مشتركة والطعام هناك بالكاد ، والرزق هناك بمعركة ، والبرد هناك ولابرد العجوزة ؟

لماذا ـ هذه هى العبارة ـ كما يقول محمود سعدنير . . .على وزن وليم شكسبير ، ويامحسنين . . ياطيبين . . الله يديكم العمر الطويل .



جاء الشاعر الازرقى





ومسحت لندن كلها فى أيام ، من استانمور الى هامبشاير ، ومن ليفربول الى أولدجيت ، طول النهار راكب على السلالم وراكب على الكراسي والمترو ، يفط وينط بالعبد لله . وكأنى عبيط أركبوه مرجيحة . أو كأننى طفل أخمدوه فى سرير هزاز !

وهكذا . . . وبفهلوة اصبحت واد لندناوى مفيش كلام . . الشوارع اعرفها بأسمائها والميادين أعرفها بتماثيلها ، والقهاوى أعرفها بالوايم ، وأصبح لى فى لندن أصدقاء !

أول هؤلاء الاصدقاء شاعر انجليزى أرزقى ، لا أعرف كيف انجذب الى العبد لله ، ولاكيف انجذبت اليه ، ويبدو أن الارزقى للارزقى كالبنيان المرصوص يجذب بعضه بعضا . وكلمة فابتسامة فسيجارة ففنجان قهوة طلبه الشاعر لسيادتى وتوليت انا دفع الفلوس ، وكان الشاعر يجلس فى ركن يستجدى عرائس الشعر ، وعقب يحترق بين أصابعه ويحرق جلده ! وتعارفنا على الفور ، وتكلمنا ، أنا محمود السعدنى من كايرو ، وهو بيتر راسل من لندن ، وأنا كاتب أرزقى ، وهو شاعر أرزقى ، وليس بين الارزقيين حساب !

وكان الشاعر يبدو شابا رغم انه فى الخامسة والاربعين ، شعره يشبه شعر كيندى الله يرحم شبابه ، وخصلة من شعر الشاعر بيضاء من غير سوء ، وفى أصبع يده خاتم كالح اللون كأنه غطا حلة نحاس ، وبنطلونه كشعره كلاسيكى قديم ، وقميصه كان قميصا فى يوم من الأيام ، أما الحذاء فانجليزى السطة ، وعلى الترابيزة عشرة كتب من تأليفه ومسودة لديوان لم يظهر بعد ، ديوان اسمه « مدينة بلا قلب »! . .

ورغم الفلس والحرمان والجوع ، فقد كان الشاعر مؤمنا كامرأة فرعون ، هادئا كجبل الطور ، ومتفائلا واثقا من انه سيأتى يوم ، يستطيع أن يأكل فيه وجبة ساخنة من لحم الخنزير ، ويضع فى جيبه علبة سجاير عشرين !!

ورغم العمر الطويل والكتب العشرة ، ورغم انه من مواليد شلسى حى الفنانين والادباء ، ورغم انه شاعر جيد ، فلم يستطع أن يحقق أى قدر من الشهرة ، ولا أن يدخر أى جزء من الشلن ، ولو أن الشاعر بيتر راسل كان من مواليد عشش الترجمان ، ولو انه خطف رجله الى مبنى التليفزيون ، ولو انه كتب برامج لماما سميحة .. لأصبح وهو فى السابعة عشرة كاتبا ألمعيا وغنيا بنكويا ، ولصار زبونا مستديما فى الكافيتيريا ، ولنشرت صورته كل صباح فى باب حديث المدينة !

والسبب أن النجاح فى لندن سهل جدا . ولكن بشرط أن تكون فنانا ، فاذا كنت فنانا بحق وحقيق فسيأخذونك الى متحف الخلود ، فاذا كنت فنان نص نص فسيأخذونك الى شغلانة لأكل العيش ، فاذا كنت فنانا من اياهم .. فسيأخذونك على قفاك !

كان بيتر راسل هو أول نافذة نظرت منها على لندن ، وكانت النافذة الاخرى امرأة ايرلندية فى بنطلون محزق ملزق ، وبلوزة لا يزيد ثمنها عن نكلة ، وشبشب زحافى تطل من بوزه أصابع قدمها ! وكانت تتشمس فى هايد بارك عندما لمحتنى فكلمتنى فضاحكتنى وباسطتنى ثم غادتنى - يعنى تغدينا سوا - ويبدو أن الغداء كان هدف السيدة الايرلندية ، فقد ماتت كلمات الغزل على شفتيها وانحبست شهقات الحب فى زورها ! ثم اكتشفت انها سيدة ذات وجهين وذات بالين ، وأنها ليست نافذة للنظر من خلالها الى لندن ، ولكنها أوسع من ذلك وأرحب ، وأنها بلكونة أشهد اننى رأيت أوروبا كلها من خلالها !

كانت الايرلندية غلبانة أغلب من مرات الغفير حافظ الاقرع الذى هو فى بلدنا ، ولم يكن شعرها الاصفر وعيناها الزرقاوان فى زرقة الحبر الجيد ، وجسمها الملبن المشدود كأنه عيش شقق ملدن ، لم يكن كل هذا الا ديكورا جميلا يخفى تحته هلاهيل نفس ممزقة ومعضوضة ودامية ، وروح ضايعة وصايعة وغير آمنة وغير مطمئنة ، ولم تكن مبسوطة من أى شيء ، كانت تعيش لانها موجودة ، وكانت تمشى لان لها رجلين ، وتتكلم لان لها لسان ، الحب فقط هو الذى كانت تمارسه لهدف ، فقد كانت تحب لأنها فى حاجة الى الطعام ! ..

والبنت الايرلندية ذات الثلاثين عاما كانت تشتغل خدامة فى بيت ضابط امريكانى يؤمن بالله وبالدولار ، ويحب الفرفشة والانبساط ، وعندما يكون ضابط امريكانى ، كبير المقام والفلوس وفى حجم طرزان ، يعيش فى بيت انجليزى

جميل مع خادمة ايرلندية فى شكل السفيرة عزيزة ، وفى البيت طبعا صناديق ويسكى جونى ووكر ، وعلب كافيار ، فلابد أن يكون الشيطان بينهما ، بين الامريكى والايرلندية !

وفى بعض الليالى كانت تدور مناقشة فمناغشة فـ . . فكافيار ! وكانت النتيجة ولدا جميلا له عضلات الامريكانى ودلال الايرلندية . فلما طار الامريكانى عائدا الى تكساس ، كانت البنت الحلوة قد اعتادت الحياة الحلوة والاكلة الطرية والدولار الذى بلا حساب ، وكان عليها أن تعود الى عمل عادى ليس فيه كافيار ولاجونى ووكر ، والعمل فى انجلترا سهل الحصول عليه ، ولكن صعب تأديته . . العمل هناك شاق ومرهق وطول النهار وعلى ودنه ، فلم تنجح فى عمل ، ولم تمكث فى وظيفة وفى النهاية حملت طفلها الصغير الى الشارع ، وظلت تدور فى الشارع عدة أعوام الى أن التقت بالعبد لله فى الحديقة فكلمتنى وضاحكتنى وباسطتنى ثم غادرتنى . . وذهبت لتعود بعد ذلك بأيام !

وثالث نافذة نظرت منها الى لندن ياهوه ، وهوه دى كلمة عربية نحوية ، الا يقول الناس لحظة يدب العراك والخناق ، ياهوه ، لذلك أقول لكم يا هوه ثالث نافذة كان رجلا فى عمر ديفاليرا رئيس جمهورية ايرلندا ، وكان يحكم معه أيام زمان كضابط فى الحرس الوطنى الايرلندى . ثم ضاع العجوز الذى قابلته ، وارتقى العجوز الذى هو ديفاليرا الى منصب رئاسة الجمهورية ودخل التاريخ من أوسع باب . وكان اللقاء فى الطرف الاغر « واسمه بالانجليزى الترافجر » وتحت تمثال أمير البحار نلسون الجبار الذى هزم نابليون عند شاطىء أبو قير ودغدغ مراكبه وجعله يهرب على مركب صيد الى بعيد !!

ولكن الرجل الايرلندى العجوز لم يكن مبسوطا من ديفاليرا ، كان متغاظا كأنه ضرة ، حاقدا بحقارة على مجد الرجل العظيم ، وانتزع من جيب بنطلونه صورة قديمة التقطت له مع ديفاليرا فى سنة ١٩١٠ ، وبصق الرجل على وجه ديفاليرا ثم جلس يحكى بلا انقطاع من الساعة العاشرة صباحا وحتى مغيب الشمس .

وكان يتكلم بلا انقطاع وكأنه حنفية كلام انفتحت فجأة ! وكان يجلس معى مفيد فوزى على مقعد رخام ومعه كاميرا يلتقط بها بين الحين والحين - كالخواجات - صورا للحمام ! والحمام فى لندن على اشكال وعلى ألوان ، حمام يطير بجناح وحمام يمشى على الاقدام ، وصورنى مفيد عشر صور فى مختلف الاوضاع والاحجام ، ومن اجل ذلك نهضنا ثم عدنا والرجل العجوز إياه يتكلم ويتناقش ويسب الدين والدنيا وكل شىء وأى شىء ، لأن كل شىء فى العالم ، وكل شىء فى الارض وفى الوجود حقير وفقير بسبب وجود ديفاليرا !

ولقد تصادقت بعد ذلك مع الرجل العجوز إياه ، وكنت أذهب للقائه مرة كل اسبوع فى « الطرف الأغر » أجلس بجواره صامتا كتمثال بوذا ويتكلم هو بلا انقطاع وكأنه الزميل الاستاذ عباس الاسوانى . . !!

كان الرجل وحيدا يعيش وحده ، ماتت زوجته ربما من شدة الصمت ، اذ لايمكن أن تكون هذه المرأة الكريمةقد وجدت فرصة للكلام مع هذا الزوج الذى ليس فيه شىء يتحرك الا اللسان ، وماتت بنته الوحيدة فى الخامسة والستين من عمرها ، أى ماتت فى سن الطفولة بالنسبة لوالدها الذى عبر المائة بزمان !

وأصبح ميدان الطرف الأغر هو كل دنياه ، والذين تسوقهم الصدفة السيئة الى جواره هم كل أصدقائه ، وعليه ان ينتهز الفرصة ليتحدث معهم بسرعة قبل أن ينطلقوا من لسانه هاربين .

ولندن مدينة جميلة وعظيمة ومحبوبة بشرط أن تكون فى سن الشباب . السبب أن الحرب فى لندن دائرة وعلى قدم وساق . وهى أعنف وأخطر حرب دارت منذ قتل قابيل اخاه ولم تتوقف قط ! وعلى كل من يقاتل فى معركة لندن ان يتسلح بكل عدد الحرب ليخطف لقمة عيشه وليجد لقدمه مكانا فى الزحام ! وعلى قدر استبسالك وبلائك فى معركة لندن يكون نصيبك من الغنائم والاسلاب .

فاذا كنت عجوزا مثل حالى فليس لك فى المعركة نصيب ، وعليك أن تتنحى لتراقب وتشاهد وتجتر غيظك وحزنك فى صمت مثل صمت الكهوف !

منطق مقلوب بالنسبة للمنطق الذى يسود فى شرقنا السعيد . أكم من رجل محترم هنا لأن شعره شايب ، وأكم من رجل يتصدر المجالس والمآدب لانه على المعاش ، وأكم من يد يبوسها كل الرجال لأن صاحبها عجوز ، وكأن العجز شهادة وكأن الشيخوخة وسام ، وكأن المعاش رتبة ، وعلى ذلك يستحق العجوز السيادة والاحترام ولو كان فارغ العقل سفيه اللسان !

وكم من الرجال والنساء عرفت فى ميدان «الطرف الأغر» ولكن أغربهم جميعا هو هذا العجوز الحقود الحقير الثرثار . . الذى يتمتع بلسان أطول من لسان الثعبان ، وشارب ولا شارب الصرصار !

ولكن ميدان الطرف الاغر نفسه ما احلاه ! ونلسون على قاعدته الطويلة الرشيقة الممتدة الى السماء ، ويده على قبعته لسبب لم أكن أدريه ، ولكنى سألت بنتا شابة نحيفة كالغزال عن سر اليد الموضوعة على القبعة فقالت وهى تضحك ، انه ينتظر أن تمر من أمامه عذراء فيرفع قبعته احتراما لها . . ولكن للأسف ـ هكذا قالت البنت الحلوة ـ سيظل نلسون هكذا الى الابد ، فلن تمر من هنا بنت عذراء على الاطلاق !

أما النافذة التى وقفت فيها طويلا اتزوق وأتبغدد وانظر من خلالها الى الحياة والاحياء ، فقد كانت بنت صحفية المانية لا داعى لذكر اسمها لأنها قد تقرأ هذا

الكلام ، ولقد ولدت البنت الالمانية ذات يوم من عام ١٩٣٨ ، وبعد مولدها المهبب بعام انطلقت المدافع تدك كل شيء وحلقت الطائرات تشعل النار فى كل مكان ، وساح على الارض دم عشرين مليون شاب من زهرة شباب أوروبا ، وخرجت هى من الحرب بذكريات فزع لا تنسى ، ووالد كان يؤمن بالنازية كدين ، ويعبد هتلر كأنه اله . ثم تعلمت وقرأت ثم طارت الى لندن تبحث عن مكان . وكان رأسها الصغير الجميل يحلم أحلاما جميلة ، وقلبها الدافىء الواسع يمتلىء بحب الحياة ، ولكن أحلامها بدأت تتبخر ، ورأسها أخذ فى الدوار ، وقلبها راح يتقلص ويتشنج كلما مر عليها يوم فى مدينة العراك .

وانتهت البنت الحلوة الى الضياع ، وتحولت الدنيا كلها وبالنسبة لها الى زجاجة جن وفراش ورجل قادر على أن يلهب عواطفها الى درجة الاحتراق !

وفى بداية الدوار كان هناك رجل واحد وفراش وحيد ، ثم تطورت ككل شيء فأصبحت فى كل ليلة مع رجل ، وفى كل مرة على فراش آخر غريب . ومع ذلك فهى لاتزال تقرأ أحيانا ولاتزال تخلو الى نفسها احيانا فتبكى وهى تنصت بكل كيانها الى موسيقى موزارت ! ولا تزال تلعن وتسب سنسفيل دين الصهاينة باعتبارهم سبب كل المصائب والنكبات !

هؤلاء هم الثلاثة الذين دخلت من خلالهم الى دنيا اليأس والتعاسة والظلام فى لندن ، البنت الأيرلندية الصايعة ، والبنت الالمانية الضايعة ، والرجل العجوز الذى كان يوما ما صديقا لديفاليرا العظيم !

ولكن فى لندن وجه آخر مشرق ومضيء . تعرفت اليه كذلك من خلال امرأة انجليزية عظيمة ، وفتاة ايرلندية محترمة ، ورجل مسلم وموحد بالله من جزائر موريشس ، ولعلكم تذكرون عساكر الموريشان الذين كانوا فى القناة ! ورجل آخر من جزيرة ترينداد ، وجهه اسمر لامع فى لون الزفت ، طويل كأنه أوسكار وايلد جديد ، ولقد التقيت به فى حانة ليس فيها الا سكارى .ولكنه لم يكن سكران رغم الزجاجات الفارغة الكثيرة التى كانت امامه ، ورغم الزجاجات الكثيرة التى كانت فى جيوبه ، وكان يتكلم لغة عربية مكسرة ولكن لذيذة ، تعلمها عندما كان يعمل على ظهر سفينة متشردة تتسكع فى بحار الله . وعندما القت به الريح على شاطىء لندن قرر أن تكون لندن هى مدينته وهى مقبرته ، فنزل الى الشاطىء وليس فى جيبه شيء من صنف العملة ، وليس فى رأسه أى مشروع ، وليس له فيها رجل واحد يستطيع أن يشير نحوه ويقول . . هذا صديق !

ولكن منظره المهيب الغريب رشحه للعمل فى السينما ، كومبارس يسترزق ولكن على واسع . فأجر الكومبارس الجيد فى لندن يبلغ أحيانا أجر نجم من نجومنا الكبار !

ولقد كان الرجل الذى عاش حياته بالطول وبالعرض نسيج وحده ، فقد طاف أنحاء الارض ، وتسكع على أرصفة الموانى ، وافترش الحصيرة يشفط أنفاس الحشيش مع الشيالين فى الاسكندرية ، وباع ذهبا لتجار السوق السوداء فى بيروت ، واشترك مع المهربين فى توريد أفيون داخل موانى أمريكا . واشترك مع بعض الثوار فى قلب نظام الحكم فى احدى بلاد امريكا الجنوبية ، وحكموا عليه بالسجن مرة فى ايطاليا بتهمة تهريب كميات ضخمة من الويسكى ، وحكموا عليه بالاعدام مرة فى جواتيمالا بتهمة الاشتراك فى ثورة ضد الدكتاتور كاستيلو ، وكما فر من سجن نابولى ، فر من اعدام كاستيلو ، وكما شرب الحشيش ببساطة فى الاسكندرية ، نزل من السفينة ببساطة فى داكار ، والتحق بثوار ماوماو فى كينيا !

تصوروا هذه الحياة العظيمة المجيدة ينتهى بها المطاف فى آخر الامر الى شغلة كومبارس فى استديوهات لندن ، والرجل وحده مع الكأس ويمارس هواية غريبة ، لزق كل انجليزى يمر من امامه على قفاه ، ولقد رأيته أنا بنفسى يلزق انجليزيا أحمر الوجه كأن جلد وجهه من قماش القطيفة ! وعندما استدار الرجل الانجليزى ليحتج ، ماتت كلمات الاحتجاج على شفتيه ، فقد كان منظر الرجل الاسود العريض يجعل أى مخلوق وأى انسان يبتلع الاهانة دون ان يرد عليها !

ولكن الولد الاسود ابن جزيرة ترينداد لم يكتف باللزق . وقف وسط البار ورفع قبعته احتراما للقاعدين ، وقال بصوت يجلجل كالرعد : أيها الناس المحترمون : لقد لزقت هذا الرجل المحترم على قفاه وأنا أعرف انه رجل محترم ، فقد غزا جدوده بلادى منذ مئات الاعوام ، وكان هو نفسه سيدا فى بلادى ينام على المرجيحة يتهزهز بين أشجار الموز ، وكنت أنا خادما عنده ، يضربنى أحيانا بالسوط ، ويرسلنى أحيانا لاشترى له زجاجة ويسكى ، ومع الويسكى زجاجة صودا وأحيانا قطعة أفيون !

ونظر الناس الذين فى البار الى الرجل الأسود الطويل الذى يتكلم فى وقار ، ولكنه عاد يقول : أنظروا أيها الناس . . لقد دار الزمن دورته ، وهذا السيد الذى كان سيدا لى فى أيام زمان ، هاهو أمامكم الآن يعانى من الصياعة والضياعة ، وها هو الآن يشرب أمامكم بيرة وأنا أشرب ويسكى من أجود الاصناف . وضحك الناس الانجليز الذين كانوا فى البار ، ضحكوا لانه لم يكن امامهم سوى الضحك ، لأن أى حركة أو أى اشارة أو أى همسة كانت كفيلة باشعال غضب الرجل الجبار ، وعندئذ ، كانت لابد ستقوم معركة ولا معركة اليرموك ، وكان ستحدث مصايب لايعلم سرها ومداها الا بوليس تكساس !!

ولقد احببت الرجل جدا وصاحبته ، فانا احب الغرائب والعجائب فى دنيا

الناس . ومن خلاله غصت فى طين لندن حتى الركبتين ، نفذت فى نخاع المدينة حتى القاع ، فقد كان الرجل من ملوك الليل فى لندن ، ملك مرهوب الجانب عظيم الاحترام ، واسع السمعة ولا سمعة كريستين كيلر فى ملاهى الاستربتيز !

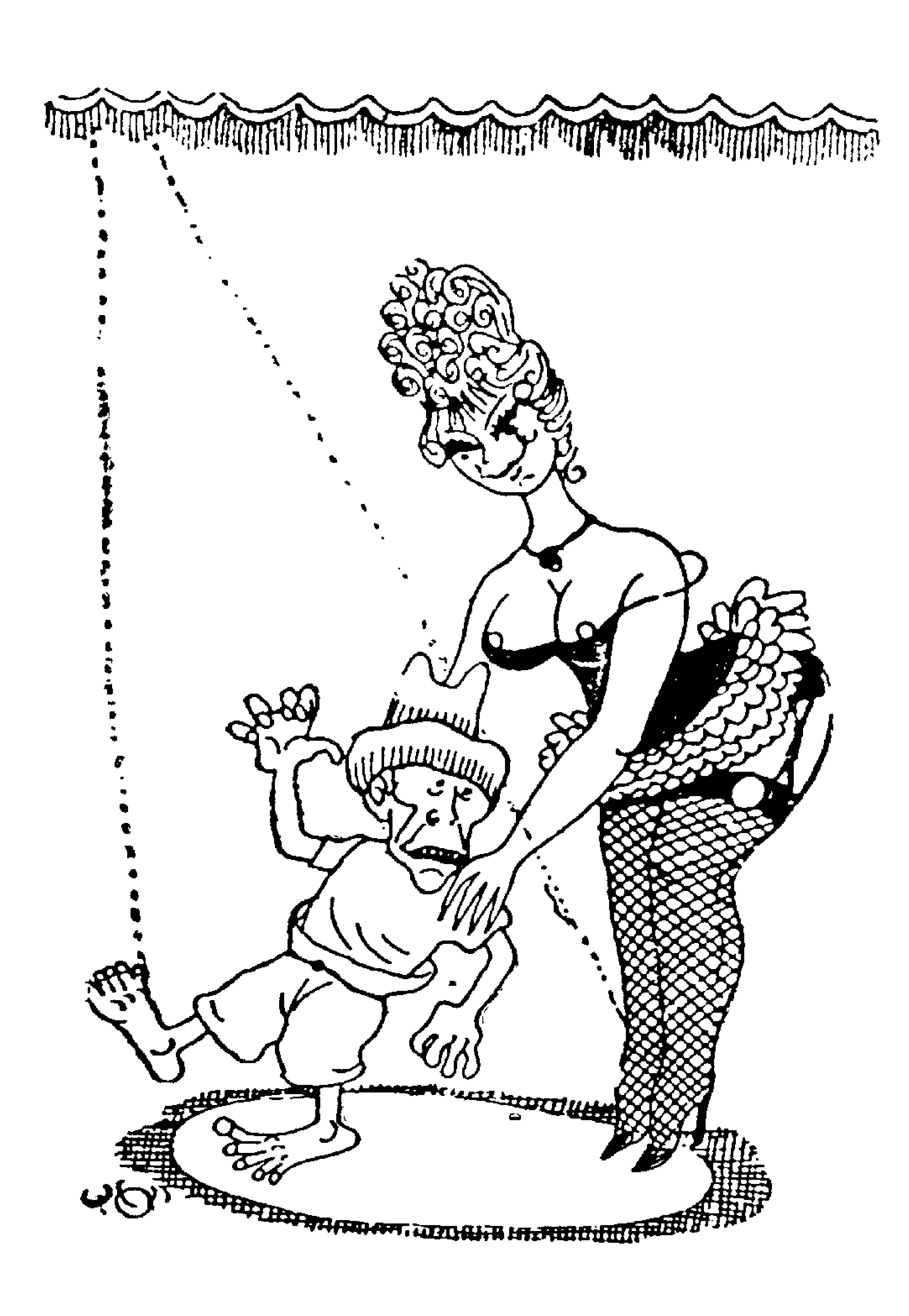
وأشهد والله على ما أقول شهيد انني رأيت مع الرجل اياه حشيش غباره ولا حشيش بيروت ، ورأيت معه أجود صنف من افيون عبدان ، ورأيت معه صورا عريانة لنساء محترمة جدا فى لندن وسيدات من ذوات الالقاب ! فقد كان له فى كل حى عشيقة ، وفى كل ركن رفيقة ، وفى كل شارع امرأة تركع عند حذائه وتغسل بدموعها قدميه ! ولم يكن الرجل بخيلا على أى امرأة تطلب وصاله ، ولم يكن انانيا بل جعل من جسمه الفحل مؤسسة عامة خيرها لكل الناس . ولكنه لم يكن عبيطا كما تظن ، ولم يكن غبيا كما تتوهم ، بل كان يتعامل فى لندن بلغة أهل لندن ، وليس فى لندن الا لغة واحدة محترمة ومفهومة هى لغة البيع والشراء .

كان الرجل الغريب العجيب إياه يقضى نهاره فى استديوهات لندن ، ويقضى ليله على المراتب الكاوتش التى فى بيوت الستات اللوردات . ورغم انه يكسب كثيرا فى النهار ، الا انه يكسب أكثر خلال الليل . ولقد اعترف لى وهو سكران بكل تفاصيل حياته ، وكانت فى يده جريدة لندنية تصدر فى المساء هزها فى وجهى بعنف وقال بصوت كأنه الشخير : لماذا لا تنشر هذه الصحيفة صورتى ؟ ولما لاح شبح ابتسامة باهتة على وجهى قال فى عنف شديد : لماذا تضحك ؟ انهم ينشرون صورة ليستون بعرض الصفحة فلماذا لاينشرون صورتى ؟ اننى أقوى من ليستون وأمتن ، وهو يبدى قوته على حلقات الملاكمة ، وانا ابديها على حلقات الغرام ، كلانا ليس له رأسمال الا عضلاته ، ولكن ليستون يستخدمها فى كسر عظام الرجال وانا استخدمها فى كسر غرور النساء . وسيأتى على كلينا يوم يعتزل فيه . . هو يعتزل الحلقة . وأنا اعتزل الفراش . ولكن تصور ! سيصبح هو وقتها بطلا متقاعدا ، وأنا سأكون بورمجى سابق ، وقد أدور أتسول من النساء اللاتى ارتوين من شبابى ، .وأكلن لحمى وصيرننى حفنة ريش على كومة عظام .

ولكن هذا الرجل الوحش الذى يقف الآن على اعتاب الاربعين ، والذى يبدو احيانا كأنه حيوان وحيد القرن هارب من غابات الكونغو ، هذا الشرس المفترس كان يبدو احيانا طفلا كابنى أكرم ، وكان يبكى أحيانا كالنساء ! فبعد هذا العمر الطويل ليس له بيت وليس له صديق !

ولقد افترقنا كما التقينا فجأة وبلا ميعاد ، ولكن صورته وهو جالس على البار كالاسد العظيم يشرب ويضحك ويبكى لم تفارق ذاكرتى ابدا ، ولم تبرح خيالى قط . ولايزال له معى قصص وحواديت ولاحواديت السلطان عبدالحميد .

البنت الصعلوكة خديجة



الاسمر الغلبان العيان عبدالحليم حافظ أرسل للعبد لله بطاقة جميلة من بلاد الدولارات والمسدسات أمريكا يسأل فيه عن صحة الصغيرة الكسيحة هالة ! والولد الغلبان عبدالحليم حافظ كان فى لندن عندما كان العبد لله هناك ، وليالى كثيرة سهرت معه فى شقته المبحبحة فى جروفنر ستريت ، وليالى اخرى قضيتها بجواره على السرير فى مستشفى سان جونس وهو نائم يتلوى ويتلعبط ويتقيأ ووجهه أزرق من فانلات الترسانة ! وحكمة الله انى اعرف عبدالحليم حافظ من زمان ، قبل الثورة بعامين وربما بثلاثة اعوام كنا نجلس معا فى قهوة بعابدين ، كان طعامنا هو السمين والطعمية وساندويتشات لحمة الراس ، وكانت هوايتنا هى لعبة الكومى ، وكانت ثروتنا هى خمسة صاغ كل يوم نأكل منها ونشرب ونلعب حتى يطردنا صاحب القهوة فى آخر الليل !

وكان عبدالحليم حافظ وقتئذ صحيحا كفرس ، منتفشا كأنه ديك رومى ، لايقهر ابدا كأنه النادى الاسماعيلى ! .

وكنا جميعا مرضى بالبلهارسيا ، قدرنا جميعا . . لأننا ولدنا فى الريف ، ومادمت مولودا فى الريف فالبلهارسيا تعاشرك وتمص من دم حضرتك ، وتتعقبك حتى آخر الارض !

ولكن لأن البلهارسيا مرض مصرى ، ولانها مرض وطنى ، فهى مثل المصريين طيبة وغلبانة قد تمص دمك ولكنها لاتقتلك ، وتهد حيلك ولكنها لاتقصم ظهرك ، وتظل طول العمر تلاعبك وتداعبك ولكنها تبقى على حياتك حتى سن الشيخوخة ، واذا انتهت حياتك فبسبب آخر لا علاقة له بها ! الله يرحمه محمد السعدنى عاش حتى سن التسعين وكان مريضا بالبلهارسيا ، والله يرحمه جدى على السعدنى عاش حتى سن المائة وكان بينه وبين البلهارسيا غرام ! وعاش كلاهما فى صحة طيبة ، وفى قوة عاتية ، وفى بأس ولا بأس الشياطين ! . .

لماذا اذن عبدالحليم حافظ وحده دون سائر البشر هو الذى تعبان من البلهارسيا وهو الذى غلبان وهو الذى يطوف أركان الارض بحثا عن دواء !

لماذا ـ أيها الناس ـ وقد وصل قمة المجد ـ تفترس البلهارسيا الضعيفة المريضة امعاءه وهو عبدالحليم حافظ ؟ وهو الذى يتأوه الملايين فى انحاء الكرة الارضية عند سماعه ؟ لماذا عبدالحليم تعبان . وشعبان وابو سريع وابو جاموسة وأبو عصايا يعيشون كالسباع والضباع ونسور الجو ، ولماذا عبدالحليم حافظ نفسه كان قويا وفتيا عندما كان فقيرا كغاندى ؟ ولماذا يصبح مرضانا عيانا عندما أصبح شهيرا وكبيرا ومنيرا كمئذنة جامع القلعة !

حكمة الله سبحانه ! وسبحانه قادر على أن يمنح الصحة لعبد الحليم حافظ فما أحوجنا اليه ، وقادر على أن يمنحه القوة فما أشد لهفتنا عليه ! الولد الاسمر العيان الغلبان أبو صوت ساحر قاهر جبار ! والذى عشت معه اياما فى لندن لاتنسى ، وكان بيته مفتوح الأبواب للجميع . وكانت اخته السيدة علية شبانة ست بيت مصرى اصيلة ، عكمت فى هالة فلم تتركها ، واحبتها هالة وشتمتنى من أجلها ، ورفضت ان تخرج من بيت علية شبانة ولم تخرج الا بعد أن هددتها أنا بالبوليس !

ولم يكن عبدالحليم حافظ هو وحده الذى سعدت به فى لندن ، كان هناك ايضا عمنا الكبير يوسف وهبى والصبى المتعاجز محمد عبدالوهاب والعجوز المتصابى محسن سرحان ! ولقد التقيت بمحسن سرحان بعد وصولى الى لندن بشهر واحد ، تقابلنا معا فى طريق الملكة ، وكان يتفرج على الفتارين كصعيدى من دشنا وصل الى القاهرة اول مرة ! ويرطن بالانجليزى على طريقة عمال الاورنس !

وانا اذكر والله على ما أذكر شهيد انى تفرجت على محسن سرحان فى السينما منذ ثلاثين عاما ، وكان هو وقتئذ بطلا مشهورا ونجما متألقا ! وأذكر ايضا ان والدى الله يرحمه كان من عشاق محسن سرحان ، بل لعل المرحوم جدى كان من عشاق فنه ، ولذلك صدمت عندما سألت محسن سرحان عن عمره فاكد لى انه فى التاسعة والثلاثين ! أقول صدمت لأنه لو كان فى التاسعة والثلاثين فعلا فلابد ان أكون أنا فى الثالثة من عمرى ، ولابد أن أكون انا المريض المشلول ، وهالة هى الست والدتى ومرافقتى فى رحلة العلاج الى لندن !

ولكن أيا كان عمره ، فأشهد أنه لايزال شابا عظيم الشباب ، كان يجرى ويقفز ويرطن بكل اللغات الا لغة الانجليز ! وكان كثير الصلاة فى قلب لندن ، عاكفا على الاذكار كأنه درويش من دراويش اسقف كنتربرى !

ولكن أعجب العجب ان محسن سرحان مشهور فى بلاد الانجليز ، فلقد لمع نجمه فى السينما بعد دخول الانجليز مصر بقليل ، وظل نجمه يلمع حتى وصل الى قمة اللمعان أيام الاورنس ، من هنا جاءت شهرة محسن سرحان فى انجلترا ، ومن هنا كان شديد الحرص على عدم الظهور فى شوارع لندن ! فأينما كنا نذهب وأينما كنا نروح كان العرب فى لندن يلتفون حولنا كأننا عجبة !

ولقد كان محسن شديد الحزن والغم لان الناس فى اوروبا تتعقبه وعباقرة السينما فى مصر يتجاهلونه ، حتى مؤسسة صلاح ابو سيف تتجاهل الممثل الوحيد الذى يتمتع بشكل مصرى وموهبة اصيلة استطاعت أن تشق طريقها من شارع ممتاز بالسيدة زينب الى شارع فؤاد !

مسكين محسن سرحان . . ولكن اكثر منه مسكنة هؤلاء الذين يتجاهلونه ! فليس يشرف فنانا اصيلا مثل محسن سرحان ان يظهر فى افلام هذه الايام ، رجل على الدكة ، دكة على الرجل ، كريستن كيلر ، كيلر كريستين ، الى آخر هذه الافلام التى تظهر هذه الايام فى السوق !

ولقد عشت مع محسن سرحان اياما جميلة واياما لذيذة ، ثم غادرنا لندن وذهب قبل أن اغادرها بثلاثة اسابيع ، وجاء عن طريق البحر فهو يخاف من ركوب الطائرات !

ولكن الصبى المتعاجز عبدالوهاب . . كان اغرب واعجب من التقيت بهم فى لندن ، ليس فى لندن فقط ولكن فى أى مكان ! انا شخصيا شديد الاندهاش لأن عبدالوهاب يكلف نفسه نقودا وتذاكر ويعبر بحارا ويطير فوق قارات ويسافر ! مع أن عبدالوهاب يستطيع أن يطوف العالم كله وهو متمدد على سريره فى الزمالك ، يكفيه أن يضع يافطة فى حجرة نومه ، هنا لندن ، أو هنا نيويورك ، أو هنا باريس . فكل الذى فعله عبدالوهاب فى لندن هو انه نام على السرير ٢٤ ساعة فى كل يوم ! وذات يوم استيقظ عبدالوهاب بعد النوم الطويل ورفع تليفون العبد لله ، وأخذت ذيل البالطو ابو عشرين جنيه فى سنانى وذهبت اليه ، وفى عربة تاكسى فاخرة انطلقنا الى المستشفى لنزور عبدالحليم حافظ ، وعلى باب المستشفى الخارجى رفض عبدالوهاب ان يغادر التاكسى وطلب فى الحاح أن يذهب به التاكسى الى سرير عبدالحليم . وقضى عبدالوهاب فى المستشفى ثلاث ساعات متكلفت فى البالطو والكوفية كأنه موظف على المعاش يلعب الطاولة فى قهوة من قهاوى شارع عماد الدين !

ولكن لان الله كريم وحليم حكم على عبدالوهاب بادعاء العجز والشيخوخة ، فقد وهب الله للسيدة حرمه نشاطا ولانشاط منتخب فريق العالم .

ومنحها شجاعة ولا شجاعة محمد على كلاى الله عليه ، ومنحها قلبا كبيرا ولا ميدان بيكاديللى . .

والله على عبدالوهاب عندما يخرج من برواز عبدالوهاب ويرتد الى طبيعته ، ستجلس عندئذ مع رجل من أولاد البلد ومن باب الشعرية بالذات . ولدمعجبانى فاهم وحدق وفهلوى وصاحب مزاج ! والله على رأى عبدالوهاب الحقيقى فى الناس وفى الاشياء ، لاتسمع رأى عبدالوهاب فى الاذاعة او التليفزيون أو على صفحات المجلات .

وذات تاكسى كنا نركبه معا جاءت سيرة مطرب فقال رأيا فيه لو سمعه المطرب اياه لظل يرقص فرحا وطربا الى ان يتوفاه الله ! ولكن ذات قعدة رسمية جاءت سيرة المطرب نفسه فقال عبدالوهاب فيه رأيا رسميا مختصرا مفيدا ولكن ليس بالصراحة ، وليس بالتمام والكمال كما ورد على لسانه فى التاكسى !

وعبدالوهاب ـ مهما كان الرأى فيه ـ فهو فنان ، وفنان عظيم ! وسر بقائه على القمة كل هذه السنين الطوال انه فنان يلهث خلف فنه ، انه يستمع الى الموسيقى لينبسط ويتعلم ! تأكد ان عبدالوهاب يستمع الى موسيقى أصغر وأردأ ملحن ولو كان محمد عمر ، وتأكد انه يستمع الى كل الاصوات ولو كان صوت شفيق جلال ! .

واذا كنت قد عشت مع محسن سرحان أياما جميلة ولذيذة فى لندن ، فأنا لم اعش فى لندن مع عبدالوهاب . ذلك ان عبدالوهاب لم يكن فى لندن ، ولكنه كان فى احدى لوكاندات لندن ، وانه ربما رأى لندن ولكن من خلف لوح زجاج !

ولا تصدقوا عبدالوهاب اذا قال انه مريض او انه تعبان ، ان عبدالوهاب يتمتع بصحة ولاصحة كاسيوس كلاى ، وهو قوى اقوى من ليستون ، وهو ذكى يشهد انه أذكى من العبد لله بزمان ! وكل الناس أصدقاؤه وأصحابه ولكن هو نفسه لايحب ولايصادق الا عبدالوهاب !

وعبدالوهاب شىء ويوسف وهبى شىء آخر . يوسف وهبى مريض فعلا ومكسور فعلا ، ويمشى الآن على عصا كريز ، ولكنه لايريد ان يعترف ولايريد ان يستسلم ولا يريد ان ينهزم ، وكل قصصه وحواديته عن قوته التى تهد الجبال ، وعن بأسه الذى يفل الحديد !

وعندما التقيت بيوسف وهبى اول مرة فى لندن قال بلهجته المسرحية المعروفة : تعرف يا ابنى ، انا هنا فى لندن منذ عام اشتقت جدا لمصر ولبياع الليمون الاخضر البنزهير وهوه بينادى عليه بالغناء » ! ربما ظن أول الأمر اننى امينة رزق أقف أمامه على مسرح رمسيس ولكنه بعد قليل عاد الى طبيعته الحلوة

فتعكز على العبد لله وخرجنا نحن الثلاثة ، هالة الكسيحة ويوسف وهبى الاعرج وأنا الغلبان الصدمان الى بيت عبدالحليم .

واذا كان عبدالوهاب فنانا يلهث خلف فنه ، فيوسف وهبى فنان صنع يوما ما فنا ، ثم تركه يلهث وراه ! ولذلك تنشال الدنيا وتنهد وتروح اجيال وتأتى أجيال ويوسف وهبى لا يتحرك ، ان الفن الذى صنعه يوما ما . . هو الفن الحقيقى ، وهو الفن الاصيل وما عداه ليس الا لغوصة ولعب عيال . ولذلك أيضا لم يدخل يوسف وهبى المسرح القومى ولا مرة ، وربما لم يدخل مسرحا فى حياته الا ليمثل عليه !

ومع ذلك فيوسف وهبى قطعة من معالم مصر الحديثة وصفحة من تاريخها ، بل لاتزال مدرسة يوسف وهبى فى التمثيل هى المسيطرة وهى الموجهة لفن التمثيل حتى يومنا هذا والى مابعد هذا بعشرات السنين !

واذا كنت قد التقيت بهؤلاء المشاهير فى لندن فلقد التقيت بعشرات غيرهم ليسوا مشاهير ولا أى حاجة . البنت المسلوعة كأنها أرنب صغير ، خديجة ، بنت البلد التى خرجت من الملاية اللف ونزعت القمطة من فوق حاجبها الشمال وخلعت السنة الذهب ومسحت الكحل من عينيها وتعلمت وتثقفت وسافرت الى بلاد الانجليز تدرس الزراعة وامكانيات الطعام ! ولكن لأنها لم تفقد جذورها فقد نقلت معها الى لندن قطعة من شارع السد ، وعاشت فى لندن عيشة غبرة لكى تتعلم ، وطبخت فى سبيل العلم فتة ولحمة راس ، ولحمة راس ليس من باب المزاج ، ولكن من باب الفلس ، لأن الرأس العجالى فى لندن تباع بشلن ونص ، والرأس الضانى تباع بالمجان !

وفى بيت خديجة وأقول بيت خديجة رغم انها متزوجة وزوجها يسكن معها واسمه سمير وهو فى لندن هو الآخر ليتعلم . أقول خديجة لانهم فى بلاد الانجليز يذكرون الزوجة اولا ، ويفسحون الطريق لتدخل المرأة اولا ، ويقفون عندما تدخل المرأة ويسلمون عليها وينحنون ويقبلون الكريمة وأنوفهم فى التراب !

ولقد صادقت خديجة وأحببتها جدا ، رغم اننى لا أجوز لها وهى نفسها لا تجوز لى ! فهى شكلى وفى حجمى ودمها أخف من دم الغزال ! ذكية ذكاء لا يخطر على بال بشر ، لماحة كما الغراب ، حساسة كان جلدها من ورق السولوفان ، وثابة كأنها حيوان الكنجر ، لاتهدأ على حال ولاتستقر فى مكان !

ولقد أكلت معها عيش ولحمة رأس ، وأكلت معها عيش وباذنجان مخلل بالشطة والليمون ، وأكلت معها فول مدمس بالقوطة ، وأكلت معها فراخ على ملوخية خضراء اشترتها البنت العفريتة من سوق لندن العجيب الذى يعرض للبيع جواهر من جنوب افريقيا وبلغ « جمع بلغة » من مدينة فاس ! وأشهد ان البنت كانت شاطرة وكانت حدقة ، فلم اعرف الملوخية من الفراخ ، ولم أعرف الاثنين من الطبق !

ومع خديجة عرفت دولت وزوجها ابو عيد ، وهو فلاح منوفى يعيش فى لندن بنفس الطريقة التى كان يعيش بها فى كفر شطانوف ! وليس لدولت هواية فى لندن الا اكل الشطة والضحك المتواصل احيانا بسبب وفى أغلب الاحيان بلا أسباب !

ومع دولت وخديجة ، وسمير وأبو عيد تشعر بدفء مصر وروحها التى لاتقهر على الاطلاق ! فى ظروف مثل تلك التى يعيشون فيها لايستطيع الانسان ان يصنع شيئا على الاطلاق ، ولكنهم رغم الظروف يصنعون الحياة ويصنعون المستقبل ويحلمون بالغد ويستعدون له بعزم من حديد !

وغير هؤلاء التقيت برجل له شكل روميل ونفس وعقل شاب . . هو الصديق ابراهيم الموجى ، ومن الموجى تعلمت كيف تكون البساطة ، وكيف يكون المصرى دائما ولو وصل أعلى المناصب ولو تحلى صدره بكل النياشين . كل شىء بسيط عند الموجى حتى الحياة ، التقى بالموت مرات فأصبح صديقه ، مرة فى حرب فلسطين نفذت رصاصة فى رأسه نفذ مثلها فى رأس كنيدى فمات ! ومرة تاه فى الصحراء ومات فعلا ، ولكنه أفاق فجأة فظن انه فى يوم البعث ، واذا به يكتشف انه وسط ملائكة الرحمة وليس ملائكة الحساب ! فى كل شىء ستجد شيئا جميلا ، ولو انك دققت النظر فى الظلام فستجد خيطا رفيعا لايراه الا ابراهيم الموجى ، ولكى تراه يجب أن تكون فى طيبة وفى بساطة ابراهيم الموجى ، ومن الموجى تعلمت أشياء وأشياء ، أهمها عدة كلمات لم تكن فى قاموسى ولا أظنها فى أى قاموس على الاطلاق .

العكنف الجبلى ، والبريصة الاصفهانى ، والرجل البشلميط ، والرجل الهبفر ، وخليك معى بكسر الميم والعين ! ولم أقابل من قبل رجلا يضحك بهذا الصفاء الذى يضحك به ابراهيم الموجى .

أعجب شىء انه يضحك وعلى كتفيه كارثة ولا كارثة هالة ، ابنه الوحيد مشلول منذ خمسة عشر عاما أو تزيد ! يبدو ان الكوارث تعلم النفس الصفاء .

يبدو ان المصائب هى سر السكينة والهدوء ، انا لا أعرف رجلا يضحك الا ومن خلفه مأساة ، لا أعرف رجلا يتنطط الا وفى رقبته شوال مصايب وقفة نكبات ! وأنا شخصيا احذر جدا من الرجل المستموت الغلبان ! الذى يبدو دائما بائسا وزعلان كأنه حانوتى لم يرزقه الله !

هذا النوع من البشر تجار دموع لايزيدون ! باعة سريحة يعرضون همومهم للبشر على قارعة الحياة ! تعلمت كثيرا من ابراهيم الموجى وسعدت ، سعدت به وتشرفت ! .

ومع ابراهيم تعرفت الى المهندس الطيب ابو صلاح ، وابو صلاح مصرى جيزاوى اصيل عاش الحياة كما ينبغى ان يعيشها الانسان ، ثم سقط فجأة تحت وطأة مرض لا يرحم ، فطار الى لندن ليعود منها وحيد الساق ! عندما رأى هالة الصغيرة بكى قلبه تأثرا وبكى فرحا ، وسرح ابو صلاح بهالة فى السينما وفى الحدائق وفى شوارع لندن ، وهى الكسيحة وهو بلا ساق منظر يدمى أصلب القلوب واعتاها ولكن هكذا هى الحياة !
وانت فى لندن لا تقابل أحدا الا وهو خارج من محنة أو فى محنة أو على أبواب محنة لايعلم مداها الا الله ! المصريون فى لندن مرضى جميعا ، والمريض فى لندن مريض مرض أعوذ بالله ، لابد طبعا تعب فيه أطباء مصر جميعا والا لما طار الى لندن !
بعض الناس تذهب الى هناك كآخر سهم يطلقونه على المرض الجبار ، وأغلبهم يعود ليموت فى القاهرة ، هذا اذا لم يدركه عزرائيل الموت هناك ! ولكن بعض الحالات كانت تشخيص الاطباء لها فى القاهرة خطأ كبيرا ، فلما وصلت الى لندن طابت باذن الله .
من بين هذه الحالات حالة موظف فى مؤسسة المطاحن قالوا له فى القاهرة . . ستموت يامسكين بالسرطان ! وفتحوا له بطنه ثم اغلقوها وسلموه لاهله ليسلموه بدورهم الى الحانوتى ليسلمه بدوره الى التربى ليدفنه فى رمال الصحراء ، ولكن الطبيب الانجليزى اكتشف هناك ان فى بطن الرجل قروحا طيبة ، يعنى قروحا ليست من فصيلة السرطان ، وخرج الرجل من المستشفى بعد عملية ناجحة وعاد سليما معافى يكاد يطير من شدة الانبساط !
ولكن العلاج فى لندن ينبغى تنظيمه على أسس سليمة وبطريقة تضمن راحة المرضى وسلامة العلاج ، مرضى كثيرون يسافرون للعلاج ويبقون شهورا طويلة فى لندن بحجة العلاج ، والدولة تدفع كل يوم عدة جنيهات من العملة

الصعبة ، وهذه الجنيهات تذهب بدورها الى محلات شارع اكسفورد حيث القماش الانجليزى وشغل الكانفاه !

وما أسهل البقاء فى لندن بحجة العلاج ، أى طبيب انجليزى تطلب منه شهادة للبقاء فى لندن عشرة أعوام يسلمها لك فى دقيقة ! وبعض المرضى يواجهون الشدائد والاهوال ، من بين هؤلاء مريضة مشلولة كلها ذهبت بلا مرافق الى مطار لندن ولم يكن فى استقبالها مخلوق ، وبعد عشر ساعات ثم نقلها الى مستشفى العظام ، ولكن مدير المستشفى رفض قبولها لأن المستشفيات هناك بنظام ! ثم وافق اخيرا بفضل الدكتور صلاح خاطر ولأن منظر البنت كان يصعب على المؤمنين والكفار ! .

الحل الوحيد لتنظيم العلاج فى لندن هو مكتب طبى يلحق بالسفارة المصرية

هناك ، وأنا اخشى فى حالة فتح مكتب من هذا النوع ان ننتدب له طبيب امتياز مثلا من القصر العينى لايجيد من الطب الا الكشف بالسماعة ولا يعرف من الانجليزية الا كلمة هالو . .

انا شخصيا اقترح انشاء مكتب طبى فى لندن وتعيين دكتور مصرى يقيم هناك مثل الدكتور صلاح خاطر ، وفى لندن عشرة دكاترة على الاقل مثل الدكتور خاطر ، بغير هذا ستظل حركة العلاج فى الخارج عقيمة ، وستظل فلوسنا تذهب فى الفراغ ، وستمضى المسألة بالبركة ، تصيب مرة وتخيب عدة مرات !

وأنا انصح جميع المرضى العيانين الذين يرغبون فى السفر الى الخارج أن يجربوا أولا فى مصر ، ففى مصر دكاترة فى مستوى دكاترة لندن ، ومستشفيات فى مستوى مستشفيات لندن ، الذى ينقصنا فقط هو التمريض والآلات !

فى بلاد الانجليز الآن كل شىء داخل المستشفى يتحرك ، ولا شىء الآن يمسك باليد ، ولاشىء يلتقطه ممرض قذر من التراب ! والممرضة فى انجلترا على مستوى طبيب امتياز ، والتمريض هناك ليس صنعة ولكنه هواية ! ليست هواية على نحو ما كان عندنا زمان أيام الاميرة فوزية عندما كانت فى الهلال الاحمر ، فهذا النوع من الدلع الملوكى ليس هواية ولكنه نزوة !

التمريض هناك هواية بمعناها الحقيقى ، أى ان البنات هناك يلاقين الاهوال حتى تلتحق الواحدة منهن بمدرسة ممرضات ، وينبغى أن تسير على الصراط المستقيم حتى تضمن ان تكون ممرضة الى آخر العمر ، وأنا لا أقصد بالصراط المستقيم ان تعيش الممرضة كالرهبان تحلق شعر رأسها وترتدى الخيش وتقاطع صنف الرجال ، ولكن اقصد انها تعيش هناك حياتها كاملة ترقص وتشرب وتغنى وتحب وتلتقى بمن تشاء من الرجال !

ولكنها الى جانب هذا تقرأ كتبا فى التمريض ، وتسافر بعثات للوقوف على احدث وسائل التمريض ! وتقرأ مجلات طبية وتتحدث أغلب وقتها عن المرض وفن التمريض ! وتعيش الواحدة منهن وكل أملها فى الحياة ان تموت وهى فى ملابس التمريض ، وان تكون نهايتها بين جدران احد المستشفيات !

انهن تماما كفئة قباطنة اعالى البحار ، الواحد منهم يتمنى الا يفارق البحر أبدا ، ويتمنى لو ان الله انعم عليه فأماته غرقا وهو فى ملابس القبطان بين انقاض سفينته ! .

ولكن هنا المسائل تختلف جدا ، الممرضة من دول تتمنى من اعماق قلبها ان يتوب الله عليها من هذه المهنة المهببة . . وان ينعم عليها بوظيفة ممثلة فى مسرح التليفزيون ! .

ولكن هل انتهى الحديث عن لندن ؟ لا ، فلايزال فى الحديث بقية وأرجو ان يكون فى العمر بقية .

الكاتب الجاهلى إياه



اللهم ياذا المن ولا يمن عليك إلا باليمن والاقبال ، اللهم بحق هذا الشهر الفضيل ، شهر شعبان المبارك ، أبتهل اليك ان تحييني فنانا في لندن ، وأن تميتني فنانا في مصر .

فما أحلى الحياة فنانا في بلاد الانجليز ، وما أحلى الموت فنانا في مصر ! فعندما تكون فنانا ولا مؤاخذة في مصر ، فما أوكس حالك ، وما أتعب حياتك ! ستلقى من منافسيك حربا ولا حرب البسوس ، وستأكل مقلبا ولا مقلب أبو موسى الأشعرى ، وستعيش حياتك ممعودا ممروضا حتى يتوفاك الله . . فإذا توفاك الله قامت القيامة من أجلك ، ودبجت الأقلام قصائد المدح في مناقب سعادتك ، وسيهرع الناس بالزهور الى القبر الذى يضم رفاتك ، وسيقف على جثتك خطيب نحاسي الصوت يشير الى نعشك ويقول : هنا يثوى فنان عبقرى كانت له غزوات وكانت له ندوات ، وقد رحل عنا الى جنة الخلد ، فسلاما وكلاما وإيلام الخلف بينكما إلام ؟!

وعندما أقول كلمة « فنان » فأنا لا أقصد نجمة السينما نبوية شخلع ، أو نجم التليفزيون على اراجوز اللى مناخيره قد الكوز ! أنا أقصد الفنان الحقيقى وأقصد الكلمة بمعناها الأصلى ، وليس بمعناها الذى اخترعه حضرات نقاد السينما وحضرات محررى الصحف الفنية في السنين الخالية !!

وقد يسأل سائل : ولماذا اذن ترجو وترغب أن تعيش فنانا في لندرة ؟ والجواب أيها السادة بسيط . . ففى لندن مثلا ألف مسرح في حاجة الى ألف مؤلف وفى حاجة الى خمسين ألف ممثل ، وفى لندن مثلا ألف جرنال في حاجة الى ألف رئيس تحرير والى مائة ألف محرر ! وفى لندن مثلا مائة استديو في حاجة الى ألف نجم وألف كوكب وعشرة آلاف ممثل أرزقى ومليون نكرة وكومبارس !! المسألة اذن ليست زحمة . . والقاعدة تحتمل مليون والقمة تحتمل أكثر من ألف !

وقد يسأل سائل مرة أخرى : وعلى هذا أيها الموكوس اختفى العراك ، انتفى الخناق ، والناس هناك سواسية كأسنان المشط وكالمؤمن للمؤمن يشد بعضه بعضا ! وأقول : لا وألف مرة لا !

هناك فى لندن خناق على ودنه ، وعراك يا حفيظ ، ولكنه خناق على مستوى ، وعراك ولكن فنى ! الفنان هناك لا يتعارك مع فنان آخر لأنه سيلهف منه لقمة ، أو سيخطف منه رزقه ! ولكن الفنان هناك يتخانق مع نفسه ، ويتعارك مع فنه ! فالفن بلا نهاية وبلا حدود .

ولكى تتقن فنك ينبغى أن تتخانق معاه ، ولكى تجود فنك يجب أن تتعارك مع نفسك ، لأن اليوم الذى ينبسط فيه الفنان من نفسه ، ويستمخ من أنتاجه ، ويقرأ نفسه ثم يقول : الله على كده ، وما فيش أحسن من كده ، فى هذا اليوم قل على الفنان السلام !

أنا أعرف كتابا فى مصر لا يقرأون الا ما يكتبون ، وأعرف موسيقيين لا يسمعون الا ما يصنعون ! مصيبة كبرى نعم : ولكن هذا هو الذى يحدث ورب الأوبرا !

والممثل هناك مثلا يلعب فيلما فلا يراه ! واذا رآه فلكى يحصى الأخطاء ، ولكى يتعرف على مواطن الضعف فيه !

والكاتب هناك يكتب كتابا فلا يعود اليه ! لأنه يعرف أن الكاتب لكى يكتب فلابد أن يقرأ ، والموسيقى هناك يضع القطعة فيسمعها الناس ويتفرغ هو لسماع ما وضعه الآخرون ! ولذلك يفشل الفنان هناك فلا ينتحر ولا يعتكف ولا يثور ، لأن جميع الفرص متاحة ، وجميع الأبواب مفتوحة ، وجميع الامكانيات تحت رجليه ! فاذا فشل فالفشل فيه ، هو الذى صنعه وهو الذى اخترعه ، وهو الذى شرب بمحض ارادته من برميل الفشل حتى توفاه الله !

وهنا ـ يا ستار يا رحيم ـ يكسب نجيب محفوظ مثلا ألف جنيه فى كتاب فتقوم القيامة ، أو يبيع عبدالرحمن الخميسى ! أوبريت بألف جنيه فيلطم بعضهم على المطر الذى انهمر على نافوخ الخميسى ! أو يسترزق العبدالله فى حلقات فى الاذاعة بميتين جنيه فيعوى الذين يحبون العواء ! .. ويبيع عمنا الكبير كامل الشناوى قصيدة من دم قلبه بربعميت جنيه فيصرخ هؤلاء الذين ليس لهم صنعه الا الصراخ !

ولكن فى لندن ، فياميت حلاوة على المكاسب ويا ميت صلاة الزين على الفلوس .. القصاص يكتب قصة فيظل يقبض منها حتى يموت ، الرسام يرسم لوحة فيظل يحلب منها حتى يموت أحفاده .. الموسيقى يضع قطعة فيبنى من ورائها سراية ويشترى ضيعة ويقطع تذاكر طيارات طوال العمر الى مختلف بقاع

الأرض ! والفنان هناك يستطيع لو أراد أن يذهب الى شاطىء الريفيرا مثلا فيخلع ملابسه ويتلعبط على شاطىء البحر . ويستطيع لو أراد أن يلف الكون كله ، فاذا راق له أن يتخلف فى كينيا نام فيها عامين ، فاذا ذهب الى المكسيك فلا بأس من أن يقيم فيها سنة أخرى ، ففى جيبه فلوس ، فاذا أفلس ففى مخه مشروعات فنية يستطيع أن يبيعها وهى لا تزال مشروعات على الورق !

ولكن كيف وصلوا الى هذا المستوى كله ! هل أصدروا قانونا باحترام الفن والفنان ؟ أبدا لم يصدر بعد قانون من هذا النوع ، ولكن كل الحكاية ان الناس هناك تحترم الفن الرفيع وتتذوقه . والناس هناك تنفق ربع دخلها على الفرجة وعلى القراءة ! والفيلم الناجح قد يعرض فى لندن عشر سنوات ، والمسرحية الحلوة تستمر لمدة جيل . والكتاب الجيد يبيع ربما خمسين مليون نسخة ! والمؤلف من دول يقبض عند البيع ، ويقبض خلال العرض وله نسبة على التذاكر وعلى البيع !

والسينما ليست بالدور ، السينما هنا على مهل وعلى الكيف . والسينما هناك على طول وعلى ودنه ولو تأخرت دقيقة فأنت ممنوع من الدخول ، والتدخين ممنوع فى السينما وكذلك أكل البيض وقرقشة السميط !

والمسرح هناك محترم ومهاب ، والتذكرة تدفع فيها خمسة جنيهات وتنتظر عشرة أسابيع لكى تعثر لنفسك على مقعد مناسب ، وتدفع جنيهين ونصف فى آخر الصفوف وعلى الأقدام ! وعندما يبدأ التمثيل لا تسمع همسة ولا هسة ، وحتى الذى عنده زكام لا يذهب الى المسرح ، فقد يضطر الى الكحة وهذا ذنب لو تعلمون عظيم !

ولقد ذهبت الى مسرح « الرويال كورت » فى حى شلسى ودفعت فى الكرسى أربعة جنيهات وبواسطة ! وجلست فى الصف الأمامى لا أتنفس . . المسرح ضيق كأنه مكتب الست نهاد لا زخرفة ولا فخفخة ولا رسومات على الجدران ولا أبسطة عجمى على الأرض ، ولا واحد شحط وطالع جرى وواحد تانى بيجرى وراه . . على رأى عمنا المرحوم بيرم التونسى ! وكانت الرواية المعروضة من تأليف يونسكو ، أحد المؤلفين الذين يثيرون ضجة الآن فى أنحاء أوروبا ، الرواية اسمها خروج الملك ، والرجل الذى يقوم بدور الملك هو العبقرى اليك جنيس وانتم تعرفونه ، فقد قام بدور البطولة فى فيلم عظيم عرض هناك فى القاهرة اسمه « جسر على نهر كواى » . . ولعب فيه دور ضابط انجليزى برتبة جنرال . . ولقد كان الجنرال أرزقى فلم يكن له هدف فى الحياة الا أن يكون جنرال والسلام . ولذلك عندما أسره اليابانيون فى الغابة خلعوا عنه ملابسه فرفض أن يتعاون معهم ، وأعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت . فلما عاد

اليابانيون فألبسوه بدلته ووضعوا على كتفه المقصات والنجوم تعاون معهم حتى النهاية واشترك معهم فى دحر الانجليز ومختلف أجناس الحلفاء !

اليك جنيس هذا يحمل الآن لقب سير مثل سير مايلز لامبسون الذى كان يحكم مصر فى سالف العصر والأوان ! وهو يظهر فى السينما ولكن على مهله . فيلم فى العام ، ربما فيلمين ، ربما ثلاثة أفلام .. ولكن لا تزيد !!

والمسرح هو دنياه وهو عالمه وهو كل شيء فى الحياة . وفى المسرح يلهف كل اسبوع مائة جنيه ، وفى السينما يلهف عدة ألوف من الجنيهات ، ولو كان اليك جنيس فى مصر مثلا ، واشتهر فى المسرح القومى ، أو على خشبة مسرح اسماعيل ياسين ، فخطفه حسن الامام الى السينما ، أو استدرجه سعد عرفه الى الأفلام ، لهجر اليك جنيس المسرح الى الأبد ، ولسار وراء العباقرة مخرجى السينما ، ولظهر فى مائة فيلم من انتاج مؤسسة صلاح أبو سيف ، ومائة فيلم أخرى من انتاج عزرائيينيلى أو زربانيللى .. فأنا لشدة جهلى لا أدرى ماذا كان اسم هذا المنتج الهمام !

ولقد كانت رواية « خروج الملك » من فصل واحد ولمدة ساعتين ، الممثلون كانوا ستة .. ثلاث سيدات وثلاثة رجال ، والملك هو اليك جنيس نفسه ، ظهر على المسرح وهو يرتدى البيجامة وفوق البيجامة طيلسان الملك ، وعلى رأسه تاج المملكة ، وفى يده الصولجان !

ولقد قرأ المنجم النصاب طالع الملك فأدرك إنه سيموت بعد ساعة ، وكان للملك زوجتان احداهما شابة جميلة ، والأخرى .. أعوذ بالله ! ولكن الشابة الجميلة كانت لطيفة وخفيفة وكانت تحب الملك حبا ولا حب ناعسة لأيوب . ولذلك اقترحت أن يتكتموا الخبر فلا يذيعوه ! ولكن المرأة الأخرى القبيحة كقرد ، الشمطاء كزوجة الأب ، السليطة اللسان كعقربة أبو رواش قررت وأصرت على أن تقول للملك كل شيء ..

وعندما جاء الملك ارتمت الزوجة اللطيفة بين أحضانه ، ووقفت المرأة الشمطاء تعلن له الحقيقة فى وضوح !! وعندما علم الملك أنه سيموت .. راح يلطم كقرد ، ويولول كطفل ، ويبكى كمجذوب فى مولد الحسين ! وكلما تحرك عقرب الساعة الى الأمام راح الملك الذى كان قويا وعفيا يفقد قوته بالتدريج . أوامره لم تعد تنفذ ، ارادته لم تعد نافذة ، كلمته لم تعد هى العليا ، تحول الملك العظيم يا ألف حسرة الى مجرد رجل عادى يزحف ببطء نحو ملاك الموت !.. عندئذ لجأ الملك الى الشعب ، ووقف يخطب من شرفة قصره كالمجنون « شعبى الكريم ان ملككم يموت .. انه يموت . من منكم أيها الناس ينقذ حياة الملك

بحياته ، من منكم يضحى بحياته من أجل حياة الملك ، ووقف يسترق السمع لعله يسمع هتاف الجماهير التى جاءت لانقاذه ، وأخيرا سمع ضجة فى الفضاء فانشرح «هاهم الناس الطيبون جاءوا لانقاذى من الموت ، أن الشعب لن يترك مليكه يموت . . لقد كنت أعلم أن شعبى سيزحف ليفدينى بروحه » . . ولكن المرأة الشمطاء هتفت من وراء ظهره ساخره « أيها الملك المعتوه ، ان الذى تسمعه ليس إلا صدى صوتك ، ليس هناك جموع تزحف وليس أمامك مفر ، ستموت ، ولابد أن تعلم أنك ستموت »!

عندئذ ينهار الملك ويجلس القرفصاء كأنه كلب وينخرط فى البكاء ! « سأموت ، يا للكارثة ، ليت الزمن يعود الى الوراء عشرة أعوام ، ليته يعود الى الوراء ليته يتراجع الى الاسبوع الذى مضى ، ليته يتقهقر الى الأمس ، ليته يتوقف عند الساعة التى انتهت »!

ولكن الزمن لا يتوقف ، والساعة المعلقة على الحائط لا ترحم . العقرب يتحرك ، وجهاز الساعة يدق ، وكل دقة تأكل من عمره ثانية ، وتلهف من عمر الملك لحظة ، عندئذ ينهض كذئب واقفا على قدميه مخاطبا شعبه الكريم : « اذا مت فاهتفوا باسمى كل صباح . . انشدوا باسمى كل وقت ، ارفعوا صورتى على كل جدار ، اطبعوا وجهى على كل قطعة نقود ، اطلقوا اسمى على كل شارع ، أقيموا لى تمثالا فى كل ميدان ، اذكرونى كل يوم ، كل يوم ، كل يوم والى آخر الزمن » ! فترد المرأة الشمطاء ساخرة من وراء ظهره « لعل هذا كله يعيدك مرة أخرى الى الحياة » . . ويتمتم الملك وهو فى ذهول « نعم ، لعل هذا كله يعيدنى الى الحياة » !

ويجلس فى النهاية على الأرض منهارا كأنه جدار فى بيت العنانى ، وعلى الأرض كانت تجلس خادمة مسكينة تعمل فى قصر الملك منذ عشرة أعوام ولكنه لم يرها ، ولم يشعر بوجودها على الاطلاق . ولكنه فى هذه اللحظة يراها جيدا ويشعر بها تماما فيتحدث اليها « أنت أيتها البنت الحلوة . . ما أسعدك ستعيشين من بعدى وستتمتعين بالحياة »! . .

ولكن البنت الخدامة لا تحب الحياة وليست شغوفة بها على الاطلاق « انى لا أرجو أن أعيش . . كنت أتمنى أن أموت وأرتاح » . . « تموتين . . ويا للبنت البلهاء ، تتمنين الموت أيتها العبيطة . . انك ستعيشين وستخرجين الى الشارع كل يوم » . . وتقول البنت « هذا صحيح ، ولكننى سأخرج الى الشارع لاشترى العيش والخضار » « ولكن ما أبهج أن يخرج الانسان الى السوق ويشترى كل شىء ، سيدفع فلوسا ويأخذ الباقى ويلمسه بأصابع يديه »! « ولكن هذه الفلوس الباقية ليست ملكى ، انها فلوس السادة الذين أعمل لديهم أيها الملك

العظيم ». . « اذن يكفى جدا انك ترتدين ملابسك كل صباح ». . « ولكن هذه الملابس خشنة وقديمة يا صاحب الجلالة ». « اذن يكفى انك ستدخلين حجرتك فى المساء وتجلسين قليلا قبل أن تدخلى الفراش لتنامى حتى الصباح . . انك حية ، يكفى انك حية وانى سأموت »!

ان الملك المعتوه لا يريد أن يموت ، انه يريد أن يعيش الى أبد الدهر ، ولكن يا للمصيبة سيموت ، لا أحد يستطيع أن ينقذه ، ولا أحد يستطيع أن يفديه !
ويختفى من على المسرح كل الذين أحبهم ، الحارس العجوز الذى كان يتقدمه دائما ويتبعه كظله ، وزوجته اللطيفة الخفيفة ، والخادمة الغلبانة التى لا تدرك أهمية أن يكون الانسان على قيد الحياة ، ولا يبقى فى المسرح الا الملك والزوجة القبيحة . . انها تقف تتحداه كأنها قدره ، وهى لا تقف ساكنة ولكنها تزوده بنصائحها لكى يواجه مصيره المحتوم : « لقد تغيرت الأشياء أيها الملك العظيم ، وما قدر له أن يقع . . سيقع لا محالة . . ولقد عشت حياتك كملك ، وعليك ان تموت كملك » . .

ويبكى الملك ويرتجف « أنا لا أريد أن أموت » وتتقدم المرأة العجوز المجربة نحو الملك وتنزع من على كاهله كل ما يربطه بالحياة ، الصداقة ، العداوة ، الحب ، الكراهية ، المسئولية ، الزهو ، الغرور . كل شيء وأى شيء يربطه بالحياة ، ويهدأ الملك ويقف على قدميه مستقيما كأنه عود قصب سليم مزروع فى أرض خصبة !

وتشير المرأة القبيحة الى كرسى العرش . . « اجلس هنا أيها الملك لتستقبل الموت ، كما كنت تستقبل زائريك » تقولها وتختفى ولا يبين فى المسرح الآن الا الملك على كرسى العرش ، ولكن حتى كرسى العرش لا يظل ثابتا ، يتحرك هو الآخر ببطء والملك جالس عليه . . والمسرح نفسه يتغير ، السقف ينهار ، وأعلام الملك تتمزق ، والرايات التى كانت تخفق تنطوى وتتناثر على الأرض ممزقة متسخة كأنما داست عليها الأقدام ، وسقف المسرح ينخلع لتبدو السماء رهيبة جليلة سوداء وساكنة . لا نجوم تلمع ولا سحابة واحدة ، وكرسى العرش يدور حول نفسه . وعندما يتم دورته نكتشف أن الكرسى فارغ وأن الملك لا يجلس عليه . . لقد مات الملك !

وعاصفة كالرعد من التصفيق تستمر فى المسرح ولمدة نصف ساعة . . ويرتفع الستار وينخفض اثنتين وثلاثين مرة . . وبعد كل عدة مرات يختفى ممثل من على المسرح بنفس الترتيب الذى حدث على المسرح ، وفى النهاية لايبقى الا الملك جنيس ، والايدى المجنونة تكاد تتمزق من التصفيق ، والحناجر تكاد تنشق من الهتاف العظيم !

وثلاثة ايام بعد هذه الرواية ورأسى من الداخل ساخنة كأنها فرن بوتاجاز ! بهرنى الرجل الذى كان يمثل أمامى ، وبهرنى المسرح الذى كان يتحرك ويتمزق ويتلولو فى كل اتجاه ، وكأنما هو مسرح عفاريتى ، وكأنما هم ممثلون من الشياطين والجان !

ولقد اختلف الناس فى لندن فى الهدف الذى قصد اليه يونسكو فى رواية خروج الملك . ولقد كان معى ناقد وأديب وكاتب انجليزى عاش فى مصر فترة طويلة ويجيد العربية كأبناء بولاق ، قال لى والعهدة عليه . . ان يونسكو يقصد بالملك اوروبا ، فهى الآن كامبراطورية آل عثمان مريضة تواجه ساعتها الاخيرة ولكنها لاتريد أن تعترف ! فلا تزال مصرة على انها مركز الكون وأم الحضارة والثقافة والعلوم والفنون والمسئولة عن جميع الاجناس والالوان وحامية كل الملل والاديان !

ان اوروبا تموت ، وهى فى حاجة الى امرأة قبيحة ولسان سليط ليواجهها بصراحة . . وليرشدها بوقاحة ، وليسدى اليها بنصائحه لكى تواجه الموت كقارة عظيمة ، كما عاشت كقارة عظيمة مدى قرنين من الزمان !

هذا مسرح جاد شهدت فيه زحاما ولازحام يوم الحشر ، واحتراما من المشاهدين ولا احترام المؤمنين فى كنيسة القديس بطرس ، ثم رأيت مسرحا آخر ضاحكا مثل مسرح اسماعيل يس ، ونفس الزحام والتقديس والاحترام ! القصة هايفة تعتمد على تداخل وتشابك الحوادث والشخصيات ، قصة لاتحتاج الى جهد ذهنى او عقلى من الكاتب ، فهى فورمة محفوظة كلها تعقيد ، ثم يأتى الحل فى النهاية وفجأة ولسبب تافه حقير ! ولكن الاخراج والمناظر وطريقة التقديم والعرض تجعلك تجلس على كرسيك حتى النهاية ، وتجعلك تصفق بأقدامك قبل يديك ، وتدفعك دفعا الى أن تهتف من الاعماق لكل من ساهم ولو بجهد بسيط فى هذا الفن العظيم .

وفى هذا الوقت من الصيف حيث كان العبد لله فى لندن . كان سير لورنس أوليفييه يعمل على مسرح فى ستراتفورد مسقط رأس شكسبير العظيم ، وكان جون جليمور يعمل على مسرح فى قرية على بعد ستين ميلا من لندن ، وكان فى العاصمة اكثر من سبعين مسرحا تعمل كلها وعلى قدم وساق . . وكان الممثل الفرنسى العبقرى شارل بوابيه يعمل على مسرح فى أطراف المدينة .

وكان فيلم كيلوباترة يعرض منذ عام ولاتستطيع الحجز فيه الا بعد شهرين . وفيلم لورانس داير هو الآخر ولكن الحجز فيه سهل وان كانت السينما دائما عامرة بالمتفرجين . ومع لورانس والست كليوباترة كان المخرج الامريكى هتشكوك يصنع ضجة فى لندن بفيلم جديد اسمه الطيور ، ومع هذا وذاك كما يقول الشيخ مصطفى اسماعيل كان اكثر من مائة فيلم جديد تعرض فى العاصمة لندن ، واكثر من مائة فيلم كمان تعرض فى الاقاليم .

ولكن أغرب فيلم كان انجليزى وفاز بجائزة فى مهرجان ، وفاز الممثل الاول فيه بقفة فلوس ، الفيلم اسمه السماء التى فوقنا ، والفيلم يحكى قصة واحد قسيس طيب ينبض قلبه بحب الخير . . ويموت غراما فى دباديب الفقراء . أراد أن يصنع شيئا لهؤلاء الفقراء الانجليز ، فاقنع سيدة كان زوجها لوردا من اللوردات بأن تخصص كل اموالها لمساعدة فقراء المدينة . . وجاء جميع الفقراء فأقاموا فى قصر السيدة يأكلون ويشربون ويرتدون أفخر الثياب ، وينامون طول النهار ، ويسهرون الليل يلعبون القمار ويسرقون أى شىء وكل شىء .

وشيئا فشيئا انقلب نظام المدينة وتشقلب حالها فقامت الثورة تطالب بشنق القسيس . الاغنياء ثاروا لأن الفقراء أصبحوا جميعا من الاغنياء . فليس هناك خدم ولم يعد هناك عمال . والتجار ثاروا لأن السيدة الغنية افتتحت فى المدينة عدة متاجر تبيع بالمجان للفقراء ، والفقراء أنفسهم ثاروا . . لأنهم لا يصلحون لشىء ولا ينفعون لشىء . لا النعمة تصلح حالهم ، ولا الراحة كافية لردعهم ، ولا النعيم يشفى نفوسهم التى انطبعت على اللؤم والخبث والفساد ! . .

وفى النهاية يهرب القسيس من المدينة ، فقد فشل فى اصلاح الفقراء ، ويضطر فى النهاية الى ركوب صاروخ ينطلق به الى الفضاء ، فرأسه يحمل افكارا لا تتسع لها الارض ، ولكن قد تتسع لها السماء !

فيلم مسموم وحقير وتافه غاية التفاهة ، أصدر حكما قاطعا لانقض فيه ولا استئناف بأن الفقراء كلاب أولاد كلاب ، وان الكون لا يستقيم ولا يستنير الا اذا كان فيه اغنياء ينفقون الملايين على موائد القمار ، وفقراء يصلحون للخدمة فى بيوت الاغنياء ! ولذلك أخذ الفيلم الجائزة الاولى وتناول الممثل الاول فيه

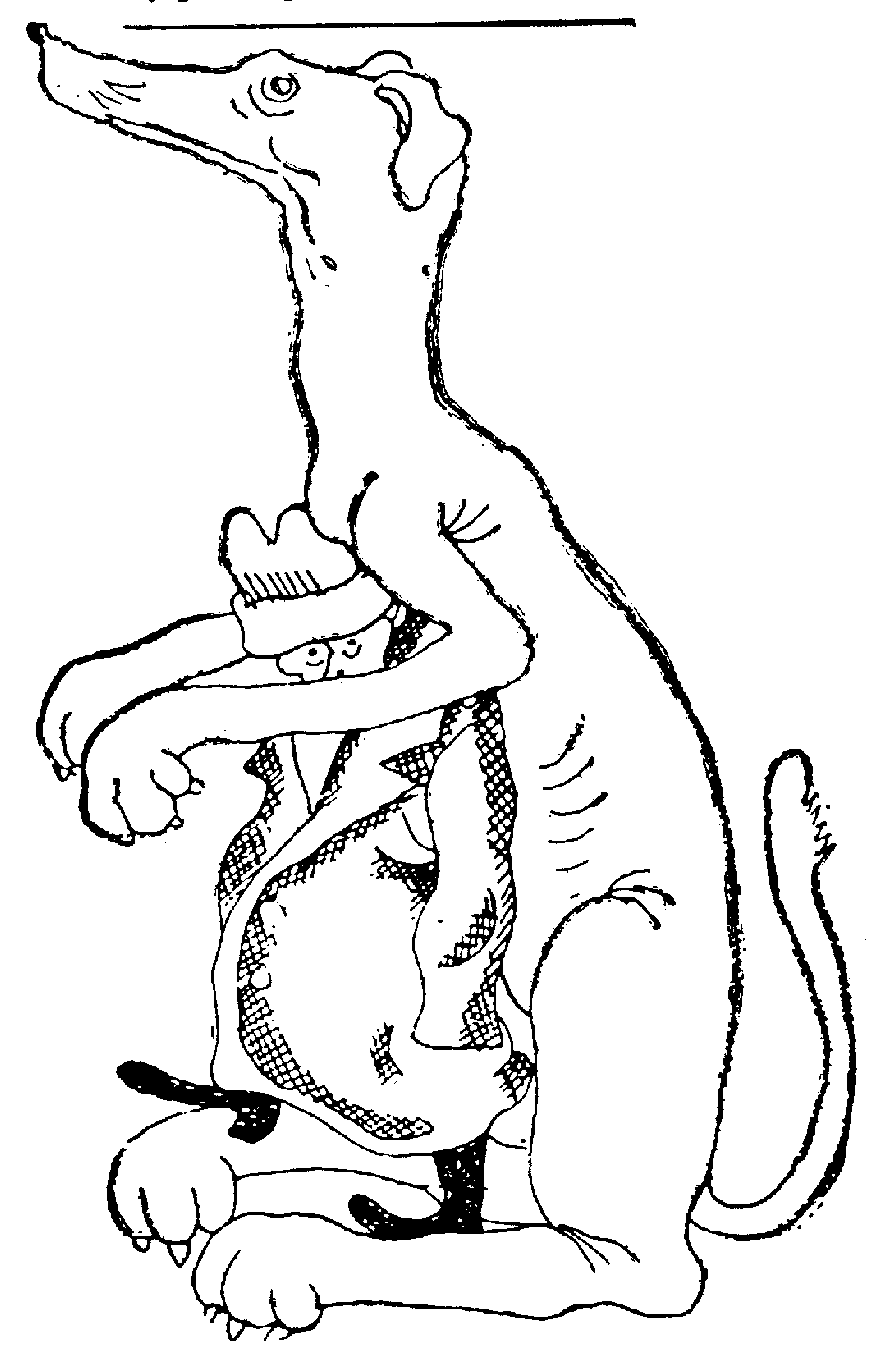
بدرة من المال نفحه اياها ملوك الصناعة والتجارة فى لندن ، كما كان يفعل هارون الرشيد مع الشعراء الذين يشيدون بعدله ويدبجون القصائد فى صفات الوالى الهمام !

ولكن أشهد ان القصة رغم انها حقيرة الا ان التمثيل كان فوق مستوى الشبهات ، والاخراج كان بارعا ، والحوار كان أبرع ، والسيناريو كان فوق الجميع ، لدرجة انك لو عرضت الفيلم على مجمع كرادلة الاشتراكية فى العالم لخرجوا من الفيلم يلعنون ابو الفقراء ، وابو الذين يريدون انصاف الفقراء !

ولكن لأن الفن باهر ومضيء فى لندن . ولأن الفنانين يلمعون فى سماء لندن كما تلمع النجوم فى سموات البلاد الحارة ، ولأن الفلوس تسيل من بين اصابع الفنان كما تسيل المجارى من بكابورتات شبرا ، لهذه الاسباب ولغيرها من الاسباب ، يحدث كثيرا ان ينخدع انسان فى نفسه فيظن انه فنان ، ولكن بيته مخروب من يخطىء الميزان ، سيجوع ويصوع ويشرب سجاير فرط طول عمره ، وينام فى حديقة هايد بارك فى فصل الصيف وينام فى السجن فى فصل الشتاء ، لأن الحياة الفنية فى لندن لاترحم ، وان تكون او لا تكون ! . . ان تكون كاتبا فنانا أو تكون كاتب « جاهلى » ان تكون مخرجا فنانا او تكون مخرج سيد زيادة ! أن تكون شاعرا فنانا ، أو تكون شاعر لورا الاسيوطى ، أن تكون أو لاتكون ! فاذا «كنت» ففى لندن لك الشهرة والمال والصيت الذائع والعمر العريض ! واذا لم «تكن» فيا ألف حسرة على شبابك ، ويا ألف نيلة على حياتك ويا ميت الف صرمة قديمة على دماغ حضرتك . .



وعن السياسة والكلاب



السياسة فى انجلترا ، هى اهم هواية عند الناس بعد كرة القدم والكلاب !
وانا لا أكره شيئا فى الوجود الا العقارب والكلاب . والسبب اننى وانا فى سن الشقاوة كنت حارس مرمى فريق الاسهم النارية ، وكانت شهرتى فى الجيزة تفوق شهرة الدو وعبدالجليل ! وذات كورة هجم فؤاد صدقى وكان كابتن البحر الاعظم على مرمى العبد لله وشاط شوطة جهنمية قذفت بى داخل المرمى واطارت فردة الحذاء خارج المرمى الى تل من الحجارة ! ورحت اعرج فى اتجاه التل حتى وصلت الى فردة الحذاء ، وعندما مددت اصابعى لالتقاط الفردة لدغتنى عقربة صفراء فى حجم عقب السيجارة لدغة ولا لسعة النار . ورحت اتاوأو وأتلولو ، ولم أسكت الا عندما حملتنى سيارة الاسعاف !

وذات مرة خرجت شلة غزالى من أعماق الجيزة الى شارع الترماى فى غزوة عظيمة ضد الكلاب . . وكانت أوامر الزعيم غزالى فى ذلك النهار . . اضربوا الكلاب . . لا كلب واحد حى بعد اليوم !

وتسلح العبد لله بعدة الحرب ، قوالب طوب ، وزلط من كل الاحجام ، واعواد شجر ، وسيخ حديد ، وأبليت طول النهار بلاء عظيما ، وانتصرت شلة غزالى انتصارا ساحقا ماحقا على جيش الكلاب فى الجيزة ، وكان عدد ضحايا العبد لله عشرة كلاب جرحى وثلاثة كلاب قتلى ، وكلب واحد جربان اسير ، سحبته خلفى ، ودخلت به الجيزة كأننى عنتر بن شداد !

ولكن آه من غرور الانتصار ، احيانا ينسى الانسان نفسه فى نشوة النصر فيفقد عقله ثم يفقد بصره ، هكذا حدث للمسلمين فى غزوة احد ، وهكذا حدث للقائد قطز بعد انتصاره الخالد على التتار . . وهكذا حدث للعبد لله فى معركة الكلاب ! وبينما أنا أمشى فى موكب النصر العظيم ، ورايات الشلة تخفق فوق رأسى ، وصيحات الرفاق تتصاعد من حولى ، والكلب الحزين الجربان يئن

من خلفى ، اذ هجم الكلب الاسير الجربان على بنطلون العبد لله ، وهبر مع البنطلون لحم الفخذ والساق . . وهكذا سقطت صريعا وانا على قمة مجدى ، وفى لحظة دخولى من باب التاريخ مثل خالد بن الوليد ، وابراهام لنكولن ونلسون ! . .

من يومها وأنا أكره العقارب والكلاب !

والحق أقول يابنى آدمين . . اننى لا أعرف سرا لكرهى للكلاب قبل سقوطى شهيدا فى معركة الكلاب ! ويبدو ان الكلاب نفسها هى المسئولة عن هذا الموقف . فلا كلب فى مصر الا وهو صايع جايع جربان ! وان يصوع انسان فى الحياة فشىء معقول ، لأن هذا النوع من الصياعة له اسباب اقتصادية واسباب اجتماعية ! ولكن ان يصوع كلب ، فهذا هو الشىء الغريب ! فليس فى الكلاب واحد مليونير عنده شركات ومصانع ومؤسسات وعنده الف كلب عمال وعتالين وشيالين ! وليس فى الكلاب واحد اقطاعى يملك عشرين عزبة وخمسين ضيعة وعشرة قصور فى الريف وفيلتين فى الزمالك ، وعنده الف كلب فلاحين وخدامين وبوابين !

وليس فى الكلاب كلب اعمال على وزن رجل اعمال ، وفاتح مكتب استيراد وتصدير ونازل هبر أذونات على ودنه ، ورشوة على عينك ياتاجر ، وعنده الف كلب مستوظف وألف جرو فراش !

وليس فى الكلاب يابنى آدمين واحد ديوس مستحوذ على تسع كلبات ، وفاتح بابه على البهلى ! لماذا اذن يصوع الكلاب فى مصر ؟ ولماذا يدوخ الكلاب فى مصر ؟ وأين أصحاب النظريات ليقتلوا بحثا هذا المشكل الخطير !

أنا شخصيا فكرت بعمق شديد فى هذا المشكل الكلابى وأنا أتفرج على كلاب انجلترا ! كلاب انجلترا كلاب ولكن ولا البنى آدمين !! كلاب ببلاطى فرو ، وكلاب وببلاطى جلد ، وكلاب بفساتين ، وكلاب ببناطيل وكلاب بنظارات ولها شنبر سلك ، وكلاب على عربيات ، وكلاب على عجلة ، وكلاب ولكن قليطة وتهوى ركوب الموتوسيكل !!

وكلاب ـ يابنى آدم أنت وهوه ـ ولاالستات المدلعة فى مصر ! اللبن تشربه وهى فى السرير . . ورطل لحم مشفى تلهفه كل ظهر ، ونص رطل تسفخه فى العشاء ، فان كانت مريضة او على مرض ، فزجاجة لبن وشريحة واحدة من لحم الخنزير !

وفى المحلات علب اكل محفوظة مخصوصة للكلاب ، وفى الاجزاخات ادوية فقط للكلاب ، وفى لندن مستشفيات لايدخلها الا الكلاب ! وفى لندن حلبات

لسباق الكلاب ، وفى لندن معارض للكلاب ، وعروض لأزياء الكلاب ، ومهرجانات كلها كلاب فى كلاب ، ومجلات لآخر اخبار الكلاب ، صورة الغلاف كلب ، وصورة الظهر كلب ، وحديث على صفحتين مع كلب ، وآخر أخبار الكلب بيجو ، وأحدث فساتين الكلبة روز !!

وفى لندن اماكن مكتوب عليها ممنوع دخول الملونين ومرحبا بالكلاب ! وفى لندن مساكن ممنوع تأجيرها لعائلة معها طفل ، ولكن ياألف مرحبا بواحد يسكنها ومعه ألف كلب !!

والكلاب نفسها ـ وياللعجب ـ كأنها تعلم مالها من منزلة ومالها من اعتبار ، لم اسمع طوال اقامتى هناك كلبا واحدا يهوهو ، أو كلبا واحدا يطوف الشوارع فى الليل ، لا كلب واحد صايع ولا كلب واحد جايع ، وكلهم مستوظفين وكلهم شغالين . وكلهم والحمد لله فى احسن صحة وفى أحسن حال !

والناس هناك لاتكتفى بالكلاب الربانى ، انهم الآن يصنعون الكلاب . حول لندن عدة مصانع تصنع الكلاب ، وفى كل مصنع عالم ولا انشتين متخصص فى صناعة الكلاب ، وفى المصنع تدور عمليات تلقيح غريبة بين مختلف أنواع الكلاب لاستنباط أصناف جديدة . كلاب لاتنمو أبدا ، وكلاب تنمو أجسامها ولا تنمو أقدامها ، وكلاب تنمو أقدامها ولاتنمو اجسامها ، وكلاب فى حجم الفئران ، وكلاب لها شكل الزجاجة ، وكلاب فى حجم قلم الرصاص ، وكلاب لولا سعرها الغالى لهتفت باسم الله ودبحتها على أكلة ملوخية !

واذا تعرفت على كلب الاسرة تعرفت على الاسرة كلها ، واذا احبك كلب الاسرة احبتك فتاة الاسرة ، وربما أم الاسرة نفسها اذا كانت لاتزال تتمتع بشكل النساء !

فى حديقة هايد بارك التقيت بامرأة وسيعة العينين كأنها بقرة ، دقيقة الفم كأنها طفلة حديثة الولادة ، ملفوفة الساقين كأنها مارلين ديتريش أيام زمان ، مسلوعة القوام كأنها العبد لله ! وهوهو كلبها البرتقالى الصغير وجرى خلفى ، فلما انزعجت ابتسمت الحتة الانجليزى الحلوة وقالت لاتخف انه يتعرف عليك ! . .

وسؤال فجواب فسيجارة فمعرفة فصداقة فزيارة فيا ألف تلتميت مرحب ، السيدة أم العيون الواسعة أحبت العبد لله لأن كلبها وقع فى غرامى ، أنا خيل لى بادىء الأمر اننى من هذا الطراز من الرجال الذى تقع المرأة صريعة هواه من أول نظرة . ولكن المرأة صدمتنى حين قالت بصراحة : لقد أحببتك لأن كلبى

أحبك ، والمسألة بسيطة ـ هكذا قالت ـ الكلاب تتشمم رائحة الرجل الطيب . وانوكست ليلتها وكسة شحات مسكوه تحرى . . فقد اكتشفت ان المرأة وقعت فى هواىَ من أول هوهوه !! وانى من هذا الطراز من الرجال الذين تقع الكلاب فى هواهم من أوّل شمة !

عجيبة وغريبة دنيا الكلاب فى لندن . ولو أن مخاليق الله فى افريقيا وآسيا يتمتعون بنصف امتيازات الكلاب فى لندن . . لأصبحت الكرة الارضية هى مسقط رأس السعادة . ولأصبحت الدنيا هى عالم الموسيقى والفرح الازلى !! عجيبة وغريبة نعم دنيا الكلاب فى لندن ، ولكن أغرب وأعجب منها دنيا السياسة ! .

ففى لندن سياسة على كل لون ، حزب الرجل الابيض (النازى) ومعه حزب المحافظين فى أقصى اليمين ، والحزب الشيوعى فى اقصى اليسار ، وحزب العمال فى الوسط ، ولكن ليس الوسط بالضبط ، الوسط الذى على اليمين . وعلى الحبل يتشقلب حزب الاحرار وبعض المستقلين ، ولكن الذى يحكم بريطانيا بالفعل ، والذى يحكم بريطانيا فى الحقيقة ليس هو حزب العمال ، وليس هو حزب المحافظين ، ولكنه حزب آخر منظم وحديدى ويشتغل تحت الأرض ، حزب خطير يحكم بريطانيا ويحكم المستعمرات وكان يوما ما يحكم العالم . . حزب اسمه حى سيتى !! . .

وكل شىء وأى شىء فى لندن يخدم هذا الحزب ويحقق مصلحة الملكة والوزراء والاسطول والجيش والمخابرات .

والمخابرات فى انجلترا هى اعجب مخابرات فى العالم والذين يشتغلون لحسابها بعضهم محترفون وبعضهم هواة . خليط من مختلف المهن والطبقات . قساوسة فى ملابس الكهنوت يركعون طويلا لله ويقبضون كثيرا من المخابرات ، ورجال اعمال يطوفون الارض بحثا عن اعمال جديدة ، ولوردات فى ملابس التشريفة ، ومهراجات فى الهند ، وباشوات كانوا فى مصر وزعماء احزاب فى المنطقة العربية ، وأطباء متطوعون للخدمة فى غابات افريقيا . . ومبشرون يجمعون مؤمنين فى مجاهل آسيا ويجمعون معلومات للمخابرات فى لندن .

وسياسة انجلترا ترسمها المخابرات وتنفذها بدقة . . ولكن المخابرات لاترسم السياسة ولا تنفذها لحسابها ، انها الاخرى عميلة لمؤسسات قائمة ومحترمة فى لندن . اتحاد رجال الصناعة ، اتحاد المصدرين ، البنوك الكبرى ، باختصار . . المخابرات فى خدمة حى سيتى الشهير فى لندن !!

والذين يحكمون حى سيتى فى لندن هم مجموعة من الرأسماليين الاحتكاريين بأسلوب احمد بهاء الدين ومحمد عودة وكامل زهيرى ، ولكنهم بأسلوب العبد لله

مجموعة حرامية ونصابين وخطافين ولكنهم على درجة كبيرة من الاهمية وعلى درجة كبيرة من الاعتبار ! . .

وفى المجتمع الرأسمالى عندما تكون لصا صغيرا . . فإن البوليس يتبعك ، وعندما تكون لصا كبيرا . . فإن البوليس يحرسك . واذا كان الحرامية هم الذين يحكمون بريطانيا فى الوقت الحاضر ، فإن الحرامية هم الذين انشأوا الامبراطورية !!

ففى اول الامر كان الذى يملك البر هو الذى يملك الارض ، وكان قراصنة الانجليز هم أقوى القراصنة واغنى القراصنة ، وكانت عيونهم جميعا عورة . . والذى لم يكن اعور فيهم . . فخت عينه بأصبعه ليصبح قرصان على سنجة عشرة !

وانتشر القراصنة فى بحار الله كما كان ينتشر النشالون فى شوارع الازبكية ، وخطفوا التوابل من الهند وخطفوا الرجال من افريقيا ، وأصبحت الملكة اليزابيث الاولى اعظم وأشهر تاجرة عبيد فى العالم . وبدلا من أن تقبض صاحبة الجلالة على الحرامية الانجليز استقبلتهم فى قصرها ، ومنحتهم النياشين وقلدتهم الاوسمة وأصبح الحرامية لوردات وسيرات ، وتم لانجلترا السيادة على البحر عندما انتصر الحرامية الانجليز على الحرامية الاسبان فى معركة الارمادا !! .

من هنا كانت الحكاية ، ومن هنا بدأت انجلترا كدولة عظمى وامبراطورية تحكم العالم . وتحولت مراكب القراصنة الانجليز الى قطع الاسطول البريطانى ، وأصبح رئيس العصابة أدميرالا وعلى كتفه نجوم . وعلى صدره نياشين وله لقب ، وعلى مركبه ليس علم القرصان ولكن علم الملكة . وهكذا تكون الاسطول البريطانى العظيم . . الذى أصبح ولعدة قرون أعظم الاساطيل وأقوى الاساطيل ، وفرض على العالم كله ارهابا لم يسبق له مثيل .

وبعقلية القرصان استولى الأسطول البريطانى على منافذ العالم كلها لتصبح جميع المراكب تحت رحمة مدافعه . . وخفق العلم البريطانى على باب المندب وجبل طارق وعدن وقناة السويس وسنغافورة وهونج كونج ، واستولى على جميع المحطات فى عرض البحار ، قبرص ومالطة وجزائر الموريشس وجزيرة ترينداد وجزيرة برمودا !! وتوالى دخول المراكب الى ميناء لندن . وتدفقت الأموال على

بلاد الانجليز ، وقام حزب المحافظين برفع شعار الملك والامبراطورية . ثم قام حزب الاحرار وكل هدفه حرية التجارة ، فلا تأميم ولا تأمين ولاضرائب . والتاجر حر يسرق ما يشاء ويبيع على كيفه !!

ثم قام حزب العمال ليجمع حوله الطبقات المضروبة والطوائف الغلبانة وليدعو الى العدل وتوزيع الثروة من جديد ! ولكن الحزب الاقوى والحزب الأعظم ـ حزب سيتى ـ لم يكن يسمح لمثل هذا الحزب بالحياة . ولكن فى انجلترا لا اكراه فى السياسة ، كل شيء بالذوق وكل شيء بالهوادة ، حتى تحول أكبر حزب اشتراكى فى أوروبا الى حزب من الحرامية والنصابين !! وسرعان ما وجدت المخابرات الحل . وكان الحل فى رئيس الحزب العجوز مستر ماكدونالد ، التفت حوله شلة من أجمل وأعرق نساء انجلترا ، وكان الرجل ضعيفا مثل حالى ، مكسور الوسط مثل الرسام ايهاب ، سريع الحب مثل بليغ حمدى !!

وسرعان ما تحول الحزب الاشتراكى الى حزب رأسمالى ، وحفل تاريخه بأسود قائمة فى الوجود ، وأصبح حزب العمال بالنسبة لحزب المحافظين مثل فردة الكاوتش الاستبن ، تقفز الى الحكم عندما يتعرض النظام الاجتماعى فى انجلترا لاى هزة ! يقفز الى الحكم لا للتغيير ، ولكن للمحافظة على الاوضاع الراهنة ، ولابقاء كل شيء على ماهو عليه !!

وفى ظل حزب العمال وفى عهده ضرب الجيش الانجليزى اندونيسيا ، ودبر انقلاب ايران ، وضرب مصر فى منطقة القناة ، وضرب كينيا ، وأباد الماوماو ، وأرسل كينياتا الى السجن مقيدا بالسلاسل ، بنفس الطريقة التى كان يخطف بها القراصنة رجال افريقيا ليبيعوهم فى سوق العبيد !!

وكان النبى غاندى يقول « اننى أشعر بالتعاسة كلما جاء حزب العمال الى الحكم » ولكن النبى غاندى كان طيبا وكان على نياته ، فلم يكن حزب المحافظين هو الذى يأتى الى الحكم . ولم يكن حزب العمال هو الذى يدير دفة الحكم ، كان الذى فى الحكم دائما أبدا هو الحزب الأكبر والحزب الاعظم ـ حزب رجال المال !

والحزب الشيوعى فى لندن حزب بلا وزن . جريدته لاتوزع كثيرا ، وميدانه الوحيد هو حديقة هايد بارك حيث يقف يستمع الى خطبائه عدة بنات من السويد ورجل عجوز عاطل عن العمل ، وواحد مثلى غريب يبحث لنفسه عن صيده وسط الجموع التى تناقش وتستمع ! ذلك أن العمال فى انجلترا لا يعيشون كما يعيش العمال فى البلاد الاخرى ، عمال صحيح ولكن ولا كبار المستوظفين ،

عمال عندهم عربيات ولهم حسابات فى البنوك ، ومشروبهم هو الويسكى والمزة هى الأناناس الاخضر مع عش الغراب !

والحزب النازى ـ حزب الرجل الابيض ـ مجموعة من المخابيل والمهابيل والمخبوطين فى عقولهم ! كل رأسمالهم عدة سلالم يصعدون عليها فى الشوارع ويخطبون ضد الرجل الاسود . . أغرب شيء ان المستمعين دائما لهؤلاء الخطباء من الرجال السود !! لأن الحزب مسخة ، ولأن المسألة ليست جدا ولكنها هزار وقتل لاوقات الفراغ !

والسبب أن المؤسسات صاحبة السلطان الحقيقى فى بريطانيا لا تحب التطرف ولا تحب العنف ، ليس هناك حاجة لاقصى اليمين وليس هناك داع لاقصى اليسار ! المسائل ينبغى أن تتم فى هدوء وفى جو من « الحرية » وخير الامور . . حزب المحافظين ، فاذا لم يكن . . فحزب العمال !!

ولأن هذه السلطات عاقلة ولأنها رشيدة ولأنها قديمة وعريقة . . فالواجهة السياسية فى انجلترا تخطف الأبصار ! الحرية هى طابع كل شيء فى دنيا السياسة . أنت تستطيع أن تقول كل ماتشاء ، ولكنك لا تستطيع أن تنفذ حرفا مما تقول ! فى وسع أى انسان أن يهتف فى الطريق فلتسقط الملكة ، ولكن الملكة لن تسقط بأية حال . فى استطاعتك أن تلطم الخدود وتشق الجيوب وتهتف من أعماق كعوب سيادتك : فلتسقط الرأسمالية . ولكن الرأسمالية ستبقى الى أن يشاء الله !! ولكن اذا طب واحد من الادوات فى الشبكة فعليه أن يذهب فى هدوء غير مأسوف عليه . عندما طب ايدن فى فخ قناة السويس ذهب الى غير رجعة . . وعندما سقط ماكميلان فى حمام كريستين كيلر استدار خارجا من الباب الخلفى فى هدوء !

والسياسى فى انجلترا ما أغرب شكله وما أعجب منظره ، بدلة سوداء وكرافتة سودة وصديرى مقفول وجزمة عليها سرج قطيفة كسرج الحصان وشمسية فى الليل وفى النهار !! وبرنيطة سوداء مكبوسة على رأسه كأنه حانوق فى حى الذوات ! واذا تكلم فمن طراطيف رموش عينيه ، واذا عطس فمن قفاه ، واذا ضحك فمن سقف حنكه تنطلق الضحكات .

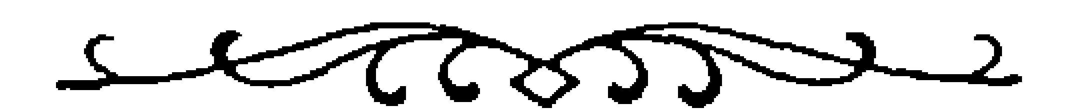
والسياسى الناجح فى انجلترا يعيش عيشة أقيال الهنود فى سالف العصر والاوان ، انه يستطيع أن يكون لسان حزبه ولسان شركة من الشركات ! واذا كنت سياسيا وخدام شركة من الشركات فلك المال والجمال والعمر الطويل . ذلك ان الشركات فى انجلترا ليست من هذا الطراز من الشركات التى كانت

عندنا أيام زمان ؟! شركات عبود نفسها ليست دكانا فى شركة هناك ! الشركة هناك رأسمالها يفوق ميزانية دولة ، وفى مجتمع مثل هذا تسود كلمة يا بخت من نفع واستنفع ، وشيلنى وأشيلك ، ولقمة ناكلها سوا . . وتراعينى قيراط أراعيك قيراطين ، وتراعينى فدان أراعيك عزبة !!

ولكن أبرع شيء فى دنيا السياسة بانجلترا انك لاتشعر بضغط . كابوس سيتى ستريت موجود ، ولكنك لاتشعر بضغط الكابوس عليك ولكنك تعيش كأنك فى حلم . . المشانق موجودة ولكن حيطانها من زجاج . كل شيء برفق وبالذوق وبالهداوة ، وانت فى النهاية حر تستطيع أن تكتب ماتشاء وأن تقول ما تريد ، ولكنك لا تستطيع أن تصنع أى شيء . . ولو كان ثقبا فى نظام المدينة !!

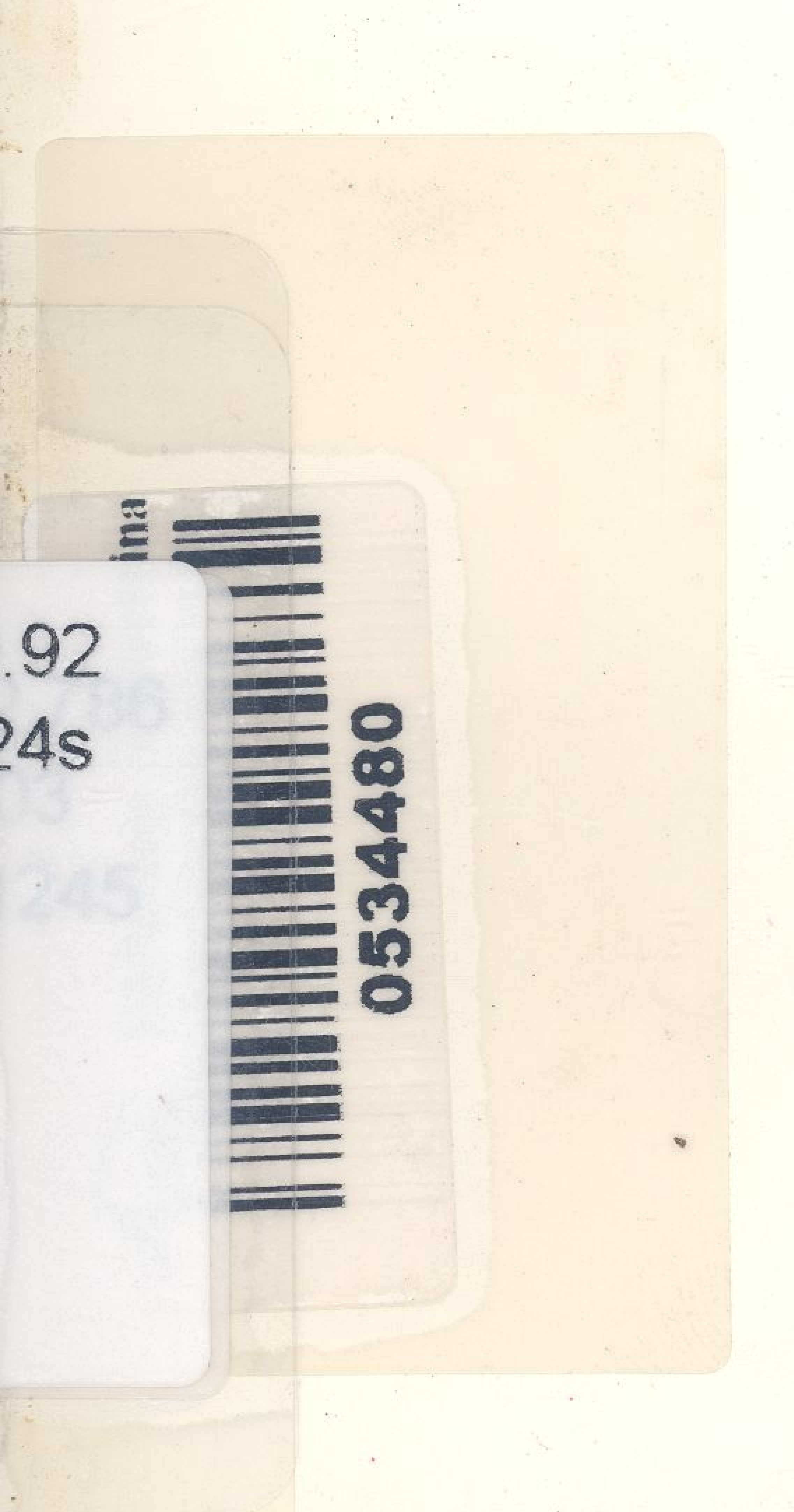


فهرس



رقم الايداع
٥٤٠٨ / ١٩٩٠ م
I.S.B.N. 977 – 08 – 0036 – 8

(مطابع الأخبار)




أخبار اليوم
ادارة الكتب والمكتبات

